معهد البحوث والدراسات العربية

الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب

١٨٤٠ - ١٩٠٩

تأليف
الدكتور
السيد رجب حراز
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٧٠

الفصل الرابع

العثمانيون والحجاز

خضوع الحجاز للسيادة العثمانية :

تلا سقوط مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧ امتداد سيادتهم إلى الحجاز امتداداً سلمياً . فالحجاز بسبب الحماية العسكرية التى توفرها له مصر والعون المالى الذى تمده به متمثلا فى ريع الأوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين وعلى أهل مكة والمدينة ، كان يتبع مصر تبعية تلقائية ، بمعنى أنه لم يكن يرتبط بدولة معينة فى مصر ، بل كان يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها .

وكان يتولى حكم مكة ــ قلب الحجاز ومركز الأرض المقدسة ــ الشريفيون أو الأشراف الحسينيون ، الذين ينتسبون إلى على بن أبى طالب زوج ابنة رسول الله فاطمة الزهراء . ولم يكن سلطان مصر فى عهد المماليك هو الذى يختار شريف مكة ، بل كان كبار الإشراف يختارونه من بينهم ، ويطلبون إلى سلطان مصر تثبيته فى منصبه .

وعلى أواخر أيام دولة المماليك فى مصر ، ساءت العلاقات بين أشراف مكة والسلطان الغورى . فقد أغضب هؤلاء الأشراف فشل المماليك فى إيقاف التحول التجارى الذى نجم عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ، وهو التحول الذى أدى إلى حرمان جدة من مواردها الجمركية . ولذلك وقعت بعض الاضطرابات فى الحجاز ضد الحكم المصرى ، رد عليها الغورى باعتقال بعض القضاة ورجال الدين الحجازيين فى القاهرة . ولما

دخل السلطان سليم الأول القاهرة عام ١٥١٧ أفرج عن هؤلاء المعتقلين . فعرضوا عليه أن يكتب إلى أمير مكة الشريف بركات الثانى (١٤٩٥ — ١٥٢٤) داعياً إياه للدخول فى طاعته ، كما تعهدوا هم أنفسهم بأن يكتبوا إلى الشريف بركات بهذا الصدد .

ووجد الشريف بركات أن من الحكمة قبول السيادة العثمانية ، لحاجته أولا إلى مساندة دولة إسلامية كبيرة كالدولة العثمانية فى مواجهة الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر ، وللاستفادة ثانياً من ريع الأوقاف المرصودة فى مصر على الحرمين الشريفين وعلى أهل مكة والمدينة وفضلا عن ذلك ، فإن خضوع الحجاز للسيادة العثمانية لن يغير من نظام الشرافة المتبع فى حكم هذا الإقليم ، بل قد يؤدى إلى تقوية مركز الشريف بركات أمام منافسيه وخصومه من أسرة الأشراف(١) .

وعلى ذلك ، فقد أسرع الشريف بركات بإرسال ابنه وشريكه فى الإمارة وهو الشريف « أبو نمى » إلى القاهرة ، لكى يقدم التهانى وفروض الولاء للسلطان سليم الأول المظفر ، إلى جانب مفاتيح الحرمين الشريفين ، إشارة إلى خضوع الحجاز للسيادة العثمانية ، « فقابله (السلطان) بالإجلال وأبقاه على شركة والده فى الإمارة »(٢) . وأذن السلطان للشريف أبى نمى بقتل حسين الكردى صاحب جدة من قبل الغورى ، كما أصدر فرماناً بتفويض الشريف بركات فى حكم مكة والمدينة والحجاز كله ، على شريطة أن يعترف بسيادة الباب العالى(٣) . وقد قرىء هذا الفرمان على أهل مكة وسط احتفال كبير .

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) أحمد بن زينى دحلان . تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية ص ١٥٠ .

(٣) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, p. 124.

وهكذا دخل الحجاز سلمياً تحت السيادة العثمانية ، وأبقى العثمانيون على نظام الشرافة أو الإمارة فى هذا الإقليم كما كان على عهد الدولة المملوكية . وفضلا عن ذلك ، فقد أنشأ العثمانيون صنجقية فى جدة أقاموا عليها والياً أو باشا تركيا ليكون ممثلا للباب العالى فى الحجاز ، وقرروا أن تقسم موارد جدة الجمركية بين باشا جدة وبين شريف مكة(١) .

الحجاز خلال العصر العثمانى الأول :

وكان بفضل نظام الشرافة أن تمتع الحجاز إبان العصر العثمانى الأول بقدر كبير من الاستقلال الذاتى ، وصار الأشراف يعتمدون فى عيشهم على القاهرة أكثر من القسطنطينية(٢) . فعلى الرغم من أن جميع الولايات العثمانية كانت تدفع للدولة جزية سنوية ، فقد انفردت مكة بنظام خاص . إذ كانت الدولة هى التى ترسل إليها كل سنة مقداراً محدداً من المال قررته على مصر واعتبرته من ملتزمات مصر السنوية كالخزنة تماماً . وقد استمرت مصر العثمانية المملوكية ترسل بانتظام المبالغ المقررة والأموال والغلال الموقوفة على الحرمين الشريفين وعلى أهل مكة والمدينة .

وكان من أهم مهام شريف مكة ، تأمين قوافل الحج الإسلامى الوافدة إلى الحجاز ، وخصوصاً قافلتى الحج الشامى والمصرى ، فكان عليه أن يجنب هاتين القافلتين أعمال السلب والنهب التى قد تتعرضان لها من جانب البدو والأعراب . ولم يكن شريف مكة يعتمد فى ذلك على قوات عسكرية نظامية ، وإنما على نفوذه لدى القبائل العربية النازلة على طول طرق القوافل ، وكذلك على محطات الحراسة التى أنشأتها الدولة العثمانية بجوار الآبار على طول الطريق بين مصر والشام ومكة .

---

(١) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 202.

(٢) Lewis, B. : The Arabs in History, p. 160.

على أن الأشراف لم يكتفوا منذ أواخر العقد السابع من القرن السادس عشر بحكم الحجاز وحـــده ، بل صاروا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من شبه جزيرة العرب. ولذا أكثروا من الإغارة على تلك المناطق بغية تأديب أهلها حيناً ولملء خزائنهم بالمال أحياناً . وقد بدأت إغارتهم على نجد فى عام ١٥٧٨ ، ثم عادوا فغزوها مرة أخرى بعد ثلاث سنوات. وفى خلال القرن السابع عشر غزا الأشراف نجد خمس مرات فى سنوات ١٦٠٦ و ١٦٤٧ و ١٦٦٩ و١٦٧٦ و ١٦٩٧(١) .

ورغم الوصاية الاسمية التى كانت للسلطان العثمانى على الأماكن المقدسة فى الحجاز منذ مطلع القرن السادس عشر ، فقد ظل هذا الإقليم بمنأى عن تطلعات القسطنطينية السياسية والعسكرية إليه(٢) . وهذا فى الواقع مبعث تدعم نظام الشرافة فى مكة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . ومع ذلك ، فإن هناك عوامل أخرى ساعدت دون شك على تدعيم شرافة مكة وتقويتها ، منها استقلال اليمن عن الحكم العثمانى فى عام ١٦٣٥ ، وانسحاب الأساطيل العثمانية من البحار الشرقية(٣) ، ثم ما لجأ إليه أشراف مكة منذ أواخر القرن السابع عشر من فتح ميناء جدة للتجارة الأوروبية(٤) .

ومع أن نفوذ العثمانيين قد تهدد منذ بداية القرن الثامن عشر فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً ، فقد ظل الأشراف فى مكة وأهل الحجاز عموماً محتفظين بولائهم للباب العالى. فكان شريف مكة يتسلم براءة منصبه فى كل عام ، ويعترف من جانبه بالقاضى الذى يعينه السلطان ، ويفخر بأنه خادم الدولة والخليفة العثمانى . ويعطينا الرحالة الدانمركى كارستن نيبور

---

(١) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, pp. 12-23.

(٢) Philby, H. St. John : op. cit., p. 17.

(٣) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 97.

(٤) Anis, M. : England and the Suez-Route in the Eighteenth Century, p. 18.

Carsten Neibuhr تفسيراً لهذا الموقف ، فيقول : « ما كان يتخاذل عرب الحجاز عن طرد الأتراك لولا المبلغ السنوى الذى يناله كل مقيم فى مكة ، وال الرسول (الأشراف) فى الحجاز ، بصفتهم سدنة الكعبة ، ولولا ما كان يرسل من مراكب القمح والأرز وغيرها باسم السلطان من السويس والقصير إلى ينبع وجدة ثم مكة والمدينة فى موسم الحج ، ولولا كذلك ما كان يجلبه المحملان الشامى والمصرى إلى الأرض المقدسة من خيرات ، وخصوصاً هدايا تأمين الطريق للأعراب »(١) .

الصراع على الشرافة :

ومع تدعم نظام الشرافة فى مكة إبان العصر العثمانى الأول عموماً ، فقد عانت إمارة مكة فى هذا العصر صراعاً مريراً حول منصب الشرافة . وكان هذا الصراع قد بدأ فى الأصل بين أسر ثلاث ، هى الأسرة الموسوية (أو الموسويون ويقال لهم أيضاً بنى موسى) والأسرة السليمانية (أو السليمانيون ويقال لهم كذلك بنى سليمان) والأسرة الهاشمية (أو الهواشم)(٢) ، وذلك منذ أن تمتعت الأسرة الأخيرة بشبه استقلال فى الحجاز فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وبالذات على عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى(٣) .

وفى أوائل القرن الثالث عشر ظهرت أسرة رابعة ، هى الأسرة الإدريسية ، ومؤسسها هو الشريف قتادة بن إدريس الذى حكم مكة من ١٢٠١ إلى ١٢٢٠ م ، ثم تداول أبناؤه وأحفاده الحكم طوال القرنين

---

(١) Neibuhr, C. : Description de l'Arabie, pp. 302-3.

(٢) يقول ابن دحلان : « أول من ولى مكة (من الأشراف) هم الموسويون ، ويجتمعون مع الهواشم فى الأمير حسين بن محمد الثائر ، ومع آل قتادة فى محمد الثائر ، ومع السليمانيين فى عبد الله بن موسى الجون » . انظر أحمد بن زينى دحلان : تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية ص ١٤١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ١٩ — ٢٣ .

الثالث عشر والرابع عشر والربع الأول من القرن الخامس عشر ، حين استطاع فرع من الأسرة الإدريسية ، وهو بيت بركات بن حسن أو بركات الأول أن يتولى حكم مكة منذ الربع الثانى من القرن الخامس عشر(١) ، أى فى عهد الدولة المملوكية فى مصر . وعندما سقطت هذه الدولة فى عام ١٥١٧ على يد السلطان سليم الأول ، اعترف الشريف بركات بن محمد ابن بركات أو بركات الثانى بالسيادة العثمانية الجديدة ، وبذا ظل آل بركات يحكمون مكة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر(٢) . وفى أثناء ذلك كان النزاع على الشرافة يشتد بين بيت بركات وبين فرع آخر من الهواشم، وهو بيت زيد ، الذى انتقلت إليه الشرافة منذ منتصف القرن الثامن عشر(٣) .

ماذا كان موقف الدولة العثمانية من المنازعات المحلية بين الأشراف بمكة ؟ فى الواقع أن الدولة العثمانية — خصوصاً فى القرن الثامن عشر — لم تكن فى حال يسمح لها بالتدخل فى أمور شرافة مكة ، بسبب انشغال الدولة بحروبها فى أوروبا من جهة واستبداد العصبيات المحلية بالسلطة فى الولايات من جهة أخرى . ومع ذلك ، فإن السلاطين العثمانيين كانوا يتدخلون فى بعض الأحيان لعزل من يريدون عزله من الأشراف عن طريق باشا الشام . فكان هذا ينتهز فرصة الفترة القصيرة التى يبقى فيها الحجاج بمكة ، فيقوم بعزل الشريف المطلوب عزله ويولى غيره من نفس الأسرة ، كما كان يعين أحد الباشوات الأتراك بجدة . ولكن هذا كان يضطر إلى الفرار أحياناً ، ولا يستطيع العودة إلى جدة إلا مع وفد الحج السنوى .

---

(١) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, p. 106.

(٢) يستثنى من ذلك فترات حكم فيها أشراف من ذوى زيد ، هم الشريف زيد بن محسن (١٦٣١ — ١٦٦٦) والشريف سعيد بن سعد (١٦٨٧ — ١٧١٦) .

(٣) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, pp. 170-3.

ومما يجدر ذكره أن المتنافسين على شرافة مكة كانوا يلقون تشجيعاً من أصحاب السلطان فى الخارج . إذ كانت أمور مكة خلال القرن الثامن عشر موضع تدخل حكام مصر والشام واليمن . وفيها كان يتصادم نفوذ أولئك جميعاً . فكان لكل منهم منافس يناصره ، وفى انتصاره وتوليه الشرافة انتصار ضمنى لوليه(١) . وعلى العموم ، فقد استمرت منازعات الأشراف بمكة على أشدها حتى نزلت الجيوش المصرية أرض الحجاز فى مطلع القرن التاسع عشر .

محمد على والحجاز :

وكان محمد على قد لبى طلب الباب العالى « لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما » من أيدى السعوديين ، فأرسل عام ١٨١١ حملة بقيادة ابنه طوسون ، تمكنت من إجلاء الوهابيين عن المدينة المنورة فى نوفمبر ١٨١٢ ، ثم عن مكة وجدة فى العام التالى . وبذلك سقط الحجاز فى يد محمد على ، وأعيدت إلى الحرمين سلطة العثمانيين . ومع ذلك ، فإن حملة طوسون لم تنجح تماماً فى مهمتها . إذ ظلت كافة القبائل المنتشرة فى الحجاز من الشمال إلى الشرق خاضعة لسعود بن عبد العزيز . ولذا قرر محمد على أن يتوجه بنفسه إلى شبه جزيرة العرب الإشراف على تطهير الحجاز من السعوديين ، فوصل إلى جدة فى سبتمبر عام ١٨١٣ .

وكان شريف مكة وقتئذ هو غالب بن مساعد (١٧٨٨ — ١٨١٣) من ذوى زيد ، الذين آلت إليهم الشرافة منذ منتصف القرن الثامن عشر . ولما كان محمد على يرتاب فى إخلاص الشريف غالب لاشتهاره أثناء حكمه

---

(١) محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ص ١٣٣ — ١٣٤ .

بالدس والوقيعة وحبه لجمع المال وعدم اهتمامه بالمبادىء السامية[١] أو أن يكون الحجاز تحت السيادة العثمانية أو السعودية أو المصرية طالما أنه يتولى هو شخصياً الإمارة ، فقد قرر الباشا أن يعزله من الشرافة . وانتهز محمد على فرصة ترؤسه محمل الحج وزيارته لمكة ، فألقى القبض على غالب ، ثم طرد عائلته من قصر أجياد المشرف على الحرم الشريف ، وسجن ولديه ، وصادر كل ما يملك من أموال وأثاث ومتاع[٢] ، وعين مكانه الشريف يحيى بن سرور (١٨١٣ — ١٨٢٧) وقرر له راتباً شهرياً ، وبذا أصبح شريف مكة من موظفى محمد على فى الحجاز[٣] . ولم يلبث أن نقل محمد على غالباً وولديه — عبد الله وحسين — إلى مصر تحت الحراسة[٤] ، ولكن السلطان أمر «بسكناهم فى سلانيك»[٥] ، فانتقلوا إليها ، وقضى غالب نحبه هناك بمرض الطاعون فى صيف عام ١٨١٦[٦] .

وفى أثناء ذلك كان سعود بن عبد العزيز قد توفى فى أبريل عام ١٨١٤ ، واختلف أولاده الثلاثة فيما بينهم ، فى حين نجح محمد على فى استمالة بعض زعماء القبائل إليه بالوعود والرشاوى . وفى هذه الظروف الجديدة قابل محمد على — الذى تولى بنفسه قيادة الجند — جموع السعوديين المحتشدة فى بسل ، وكانوا بقيادة عبد الله ولد سعود الأكبر ، فألحق بهم الهزيمة بعد معركة دامية .

---

(١) يدل على ذلك موقفه من بونابرت عندما غزا مصر أواخر القرن الثامن عشر . فقد انتهز بونابرت فرصة موسم الحج ، فأرسل خطابا الى الشريف غالب يدعوه إلى صداقة فرنسا . ولما علم الشريف أن الفرنسيين قاموا بحملة على الشام وأخذوا يهاجمون عكا وأن الدولة العثمانية قد تدول ويقضى عليها ، أسرع بإرسال كتاب مطول الى بونابرت بالقاهرة أظهر فيه المودة والصداقة والاستعداد للتعاون مع الفرنسيين فى مصر .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, pp. 205-6.

(٤) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, p. 126.

(٥) أحمد بن زينى دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٦٣

(٦) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 207.

غير أن محمداً علياً لم يمكث فى شبه جزيرة العرب لكى يتابع النصر الذى أحرزه ، بل عاد إلى مصر تاركاً بالحجاز ابنه طوسون ، الذى لم يلبث أن اتفق مع السعوديين فى يونية ١٨١٥ على الهدنة ، ثم عاد إلى مصر حيث قضى نحبه بعد قليل . ولكن السعوديين سرعان ما حشدوا جموعهم وحصنوا المدن وأثاروا القبائل على الحكم المصرى ، فأرسل محمد على أواخر عام ١٨١٦ حملة جديدة بقيادة ابنه إبراهيم ، وهى الحملة التى فرضت حصاراً على الدرعية عاصمة الإمارة السعودية الأولى ، ثم دخلتها بعد استسلام عبد الله بن سعود . وفى يونيه عام ١٨١٩ أصدر محمد على أمراً بتدمير الدرعية ، فكان ذلك نهاية الإمارة السعودية الأولى[١] . وكان بعد عودة إبراهيم إلى القاهرة أن أصدر الباب العالى فى يونيه عام ١٨٢٠ فرماناً بتعيينه على باشوية جدة مكافأة له على الخدمات التى أداها للدولة .

ومع أن الشريف يحيى بن سرور ظل متولياً شرافة مكة بعد عودة إبراهيم باشا إلى القاهرة ، إلا أنه كان فى الحقيقة مسلوب السلطة والنفوذ ، وكان صاحب الأمر والنهى هو أحمد باشا يكن حاكم الحجاز من قبل محمد على[٢] . ورغم ذلك فسرعان ما استأنف الأشراف منازعاتهم التقليدية على الشرافة ، ووصل الأمر إلى حد أن قتل الشريف يحيى عام ١٨٢٧ منافساً له يدعى الشريف شنبر المنعمى داخل ساحة الحرم المكى . وكان الشريف شنبر من الأشراف العبادلة الذين راحوا ينافسون ذوى زيد على الإمارة ، فاتحد الأخيرون ضدهم ، وكانت بالتالى جريمة اغتيال الشريف شنبر[٣] .

وكان بسبب هذه الجريمة أن عزل أحمد باشا يكن حاكم الحجاز الشريف يحيى ، وأقام مكانه الشريف عبد المطلب بن غالب (١٨٢٧ — ١٨٢٨)

---

(١) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, pp. 136-146.

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, pp. 104-5.

(٣) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 240.

من ذوى زيد ، وعرض الأمر على محمد على ، ولكن الأخير « لم يجز ذلك » . وكان يوجد بمصر وقتئذ الشريف محمد بن عبد المعين بن عون ، فولاه محمد على إمارة مكة « وطلب له الأمر من الدولة ... فأجيب إلى ذلك »(١) .

وكان الشريف محمد بن عون قد ساعد القوات المصرية من قبل فى استخلاص إقليم عسير من أيدى السعوديين . وقبل أن يغادر مصر متوجهاً إلى مكة ، نفحه محمد على بمبلغ كبير من المال لتوزيعه على قبائل الحجاز ، وخصوصاً تلك التى تسكن البادية ، حيث كان الأشراف فى العادة يبحثون عن حلفاء لهم من بينهم . ومن ثم ، فقد ذهبت سدى محاولات الشريف عبد المطلب لإثارة القبائل والأشراف وأتباعهم ضد الشريف الجديد ، واضطر أخيراً أن يرحل من الحجاز عام ١٨٣١ فى صحبة قافلة متجهة إلى دمشق ، ومنها توجه إلى استانبول ليعيش فى المنفى(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن بنى عون (أو ذوى عون) (٣) وهم فرع من الأسرة الهاشمية ، كانوا قد نزلوا منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى الميدان كمنافسين لذوى زيد على الشرافة ، وذلك فى وقت كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لصراعين آخرين : صراع مع آل سعود الذين أخذوا على عاتقهم

(١) أحمد بن زينى دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٦٣ .

(٢) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 241.

(٣) يقول الملك عبد الله فى مذكراته إن عون الذى ينتمى إليه ذوو عون (والأسرة الهاشمية المالكية فى شرق الأردن) هو عون بن محسن بن عبد الله . تفرعت منه ثلاثة فروع : فرع محمد وهم أهل الإمارة ، وفرع هزاع ، وفرع ناصر . فأما محمد وهزاع فهما ابنا عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله ، وأما ناصر فهو ابن فواز بن عون . وهذا الفرع كانت تكون فيه إمارة الطائف عندما تكون الشرافة فى ذوى عون . والشرافة فى عون هى لبنى محمد بن عبد المعين . انظر مذكرات الملك عبد الله ص ٢٠ .

نشر الدعوة الوهابية(١) فى بلاد العرب وتحدوا سلطان العثمانيين ، وصراع مع محمد على الذى أرسل جيوشه إلى شبه الجزيرة العربية لاسترداد السيادة العثمانية المشرفة على الزوال هناك .

وعلى كل حال ، فإن المؤرخين يختلفون حول شخصية ونسب محمد بن عون ، فيقول بعضهم إنه كان من شخصيات مكة التى « لها مكانتها واحترامها »(٢) ، فى حين يقول آخرون إنه كان « أميراً مجهول الأصل تقريباً » . إذ كان يعمل خادماً عند أخت الشريف عبد المطلب بن غالب ، وهى الشريفة حزيمة . وقد أراد عاهل مصر من استبدال محمد بن عون بعبد المطلب أن يكسر شوكة ذوى زيد وأن يحقر عبد المطلب ويلطخ اسمه بين الناس بعد أن ارتفعت أسهمه . وفى الوقت نفسه أراد من تعيين الشريف الجديد الخادم فى الأصل أن يضمن لنفسه طاعة مطلقة . وبالفعل أصبحت شرافة مكة منذ أن تسلمها محمد بن عون ألعوبة فى يد عزيز مصر(٣) . واستمر الوضع على ذلك حتى خروج القوات المصرية من شبه جزيرة العرب فى عام ١٨٤٠ .

تقوية قبضة العثمانيين على الحجاز :

ولقد كان للحكم المصرى تأثيراته المباشرة وغير المباشرة على شبه جزيرة

(١) لا تدل كلمة الوهابية دلالة صحيحة على حركة الإصلاح الدينى التى قامت فى شبه الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر . والحق أنها كلمة أطلقها الخصوم على هذه الحركة ليشعروا بأنها مذهب جديد من المذاهب الدينية . فكما تنسب الطرق الصوفية مثلا إلى أسماء مؤسسيها ، نسب الخصوم مجموعة الآراء التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده . أما أنصار الدعوة فيرفضون هذه التسمية ويؤثرون أن يسموا أنفسهم بالموحدين أو بالمسلمين ، تمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التى هى فى رأيهم مبادىء الإسلام الأولى والصحيحة . وكان هذا فى الفترة الأولى من تاريخهم التى تميزت بالتشدد . أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين ، كما يؤكد ذلك صراحة قانون الحجاز الصادر عام ١٩٢٦ ، الذى ينص على أن مذهب الدولة الرسمى هو المذهب السلفى .

(٢) عبد الحميد البطريق : من تاريخ اليمن الحديث ص ٦٦ .

(٣) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ص ٣٣ — ٣٤ .

العرب ، وعلى الحجاز بالذات ، وهى تأثيرات مشابهة لتأثيرات الحكم المصرى فى بلاد الشام . فقد أسهم الحكم المصرى فى تقريب شبه جزيرة العرب ليس فقط للمعرفة الأوروبية ، بل فى إدخال شبه الجزيرة فى إطار السياسات الأوروبية . فمحمد على هو الذى سمح للرحالة السويسرى جون لويس بركهاردت Burckhardt بزيارة مكة والمدينة والإقامة بهما بعض الوقت ، كما شجع غيره من الأوروبيين على زيارة أجزاء أخرى من الحجاز وفضلا عن ذلك ، فقد كان الاحتلال المصرى لنجد والحماية التى وفرتها القوات المصرية للأجانب ، هما وحدهما اللذان مكنا الكابتن سادلير(١) Sadlier مبعوث حكومة الهند البريطانية من عبور شبه جزيرة العرب عام ١٨١٩ من القطيف على الخليج العربى إلى ينبع على البحر الأحمر ، حيث راح يسجل أثناء هذه الرحلة ملاحظاته عن الأماكن التى مر بها ، وهى الملاحظات التى ضمنها تقريره الذى رفعه إلى حكومة الهند وطبع فى بومباى عام ١٨٦٦ . وبفضل هذا التقرير أو بالأحرى كتاب رحلة سادلير(٢) ، وكذلك المعلومات القيمة التى جمعها بركهاردت ونشرها عام ١٨٣٠ باسم « ملاحظات عن البدو والوهابيين »(٣) ، لم يعد وسط شبه الجزيرة بلاداً

(١) كان سادلير أول أوروبى يصف البلاد التى ظهرت فيها الدعوة الوهابية . وقد أرسلته حكومة الهند فى بعثة لمقابلة إبراهيم باشا ومحاولة استكشاف أهدافه . وكانت بعثة سادلير سياسة استطلاعية ظاهرها تهنئة القائد المصرى بما أحرزه من نجاح فى بلاد العرب وإبداء استعداد السلطات البريطانية فى الهند للتعاون معه فى إيجاد سلطة منظمة فى ساحل القرصنة تحت إدارة مصرية . أما غرض البعثة الحقيقى ، فتكشف عنه تلك العبارة التى وردت فى خطاب تكليف سادلير الرسمى : « إنك مكلف أثناء وجودك فى المعسكر التركى — المصرى أن تتحقق تماماً من المقاصد التى يرمى إليها إبراهيم فى عملياته الحربية القادمة وغزواته نحو الخليج الفارسى (العربى) دون أن يلحظ إبراهيم أن تلك هى مهمتك الرسمية » .

(٢) Sadlier, G.F. : Diary of a Journey across Arabia from el Katif in the Persian Gulf to Yambo in the Red Sea, during the year 1819 (Bombay 1866).

(٣) Burckhardt, J.L. : Notes on the Bedouins and Wahabys (London 1830).

مجهولة(١) .

زد على ذلك أن الحكم المصرى فى شبه جزيرة العرب قد ترك أثراً هاماً يتمثل فى كسر شوكة القبائل العربية ، وهو أثر لاشك أن الأتراك قد أفادوا منه عندما اتجهوا إبان العصر العثمانى الثانى إلى تقوية قبضتهم على شبه الجزيرة .

فعلى أثر انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب عام ١٨٤٠ ، بادر السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) بتعيين أحد الباشوات الأتراك على جدة . ولم يكن هذا الباشا التركى يتمتع بادىء ذى بدء بنفوذ كبير أو بأى نفوذ على الإطلاق فى الحجاز ، بل كانت السلطة الحقيقية بيد أمير مكة الشريف محمد بن عون(٢) ، الذى كان قد نجح فى إقامة علاقات طيبة مع قبيلة حرب . ومن ثم ، فقد أخذ يتطلع إلى توسيع دائرة نفوذه خارج الحجاز . ومن المتواتر أن الشريف قد خرج عام ١٨٤٦ (أو ١٨٤٧) على رأس حملة إلى إقليم القصيم شمال الرياض عاصمة نجد الجديدة بعد تدمير الدرعية ، واستطاع أن يهزم قوات الأمير فيصل بن سعود ، الذى اضطر إلى دفع جزية للشريف(٣) .

وترفض الرواية السعودية الاعتراف بهزيمة فيصل وبالتالى دفعه الجزية لشريف مكة ، وتقول إنه لما كان أهل القصيم يؤمنون بفكرة الاستقلال تحت شكل من أشكال الحماية التركية ، وكانوا بصفة خاصة يمقتون عبد الله بن الرشيد المعروف بمساندته المخلصة لفيصل بن سعود ، فقد استسلموا للشريف وقواته دون إبداء أية مقاومة . ولكن عندما حشد فيصل قواته واستعد

(١) Hogarth, D.G. : Arabia, pp. 107-8.

(٢) Hogarth, D.G. : op. cit., p. 111.

(٣) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, p. 247.

للقتال ، أرسل الشريف إليه رسولا يقترح عليه سلماً وصداقة دائمة . ووافق فيصل على مطلبه هذا مشترطاً أن يتخلى الشريف عن المطالبة بالقصيم أو أية منطقة من مناطق القبائل فى نجد بلا قيد أو شرط . وأرسل إليه هدية من الخيل والمطايا ومبلغاً كبيراً من المال ، فأخذها الشريف ورحل من القصيم عائداً إلى مكة . وقد علق فيلبى على المبلغ الذى أرسله فيصل إلى شريف مكة ، فقال : « وربما أن الشريف عند عودته إلى مكة قد قدم هذا المبلغ بدوره إلى الأتراك ، باعتبار أنه الجزية التى دفعها له تابعه فيصل »(١) .

وعلى كل حال ، ففى أثناء حملة شريف مكة على القصيم ، كان الأتراك يتطلعون إلى إخضاع اليمن والتغلب على قبائل الجنوب ، ولم يلبثوا أن أرسلوا لهذا الغرض فى مايو عام ١٨٤٩ حملة عسكرية عن طريق جدة ، وهى الحملة التى رافقها الشريف محمد بن عون ، ونفذ وعده باستخدام نفوذه لدى قبائل عسير ليقفوا على الحياد أثناء مرور الحملة التركية عبر أراضيهم إلى اليمن .

وعلى الرغم من نفوذ الشريف محمد بن عون ، أو بالأحرى بسبب هذا النفوذ ومؤامرات الشريف عبد المطلب بن غالب فى البلاط العثمانى بالآستانة ، فقد تلقى باشا جدة فى أغسطس عام ١٨٥٢ تعليمات من الباب العالى بإرسال شريف مكة وابنيه الكبيرين إلى تركيا (٢) . وكان معنى ذلك أن الدولة قد قررت عزل محمد بن عون من شرافة مكة ونفيه إلى الآستانة وتعيين غريمه عبد المطلب مكانه . وهكذا اضطر الشريف محمد بن عون (١٨٢٨ — ١٨٥٢) أن يرحل من الحجاز إلى الآستانة بعد أن ترك أمور شرافة مكة بيد منصور ابن يحيى لحين عودة الشريف عبد المطلب من العاصمة العثمانية .

(١) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, pp. 195-6.
وانظر كذلك صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ج ١ ص ٣٣٠ — ٣٣٢ .

(٢) De Gaury, Gerald : op. cit., pp. 247-8.

غير أن الشريف عبد المطلب لم يمكث فى شرافة مكة سوى أربع سنوات (١٨٥٢ — ١٨٥٦) عزل بعدها ونفى إلى الآستانة ، على أثر الفتنة التى وقعت بين أهل مكة والأتراك ، والتى كان سببها تحريم الأخيرين لبيع الرقيق فى مكة(١) . وأعادت الدولة الشريف محمد بن عون إلى شرافة مكة ، فظل يتولاها حتى قضى نحبه فى مارس عام ١٨٥٨ بالغاً من العمر تسعين عاماً ، وخلفه ابنه عبد الله الذى كان يوجد وقتئذ فى استانبول كعضو فى مجلس الدولة .

وعلى هذا النحو تعاقب الأشراف عل منصب الشرافة واحداً بعد الآخر إبان العصر العثمانى الثانى ، وتحول الأشراف خلال هذا العصر إلى «أحجار شطرنج يتلاعب السلاطين والوزراء بها وينقلونها حسب مصالحهم؛ فينقل الواحد منهم من المنفى إلى الإمارة ، أو من الإمارة إلى المنفى ، دون أدنى تفسير غير تقلب عواطف الحاكمين فى الآستانة »(٢) .

وكان مما ساعد العثمانيين على التدخل فى شئون شرافة مكة وبالتالى تشديد قبضتهم على الحجاز خلال العصر العثمانى الثانى ، حفر قناة السويس وفتحها للملاحة البحرية عام ١٨٦٩ ، الأمر الذى أوجد طريقاً مائياً مباشراً بين استانبول وساحل البحر الأحمر الشرقى ، وأتاح إمكانية سيطرة الدولة العثمانية على الأجزاء الغربية من شبه جزيرة العرب(٣) . ففى خلال الستينيات ، لم تكن هناك وسيلة أمام الدولة للحفاظ على الطريق مفتوحاً إلى اليمن سوى إرسال قواتها العسكرية براً إلى الحجاز وعسير . وكانت هذه القوات تصل إلى هناك منهوكة القوى ، وبعد أن تكون قد فقدت الكثير من الضحايا ، بسبب الأهوال التى تلاقيها فى سيرها عبر الفيافى

(١) أحمد بن زينى دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٦٣ وكذلك :
De Gaury, Gerald : op. cit., p. 248.

(٢) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ص ٣٤ .

(٣) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 114.

والصحارى الطويلة ، بل كانت تصل فى بعض الأحيان بعد فوات الأوان . ولكن منذ عام ١٨٧ فصاعداً ، أصبح فى وسع الدولة أن ترسل سريعاً المؤن والإمدادات العسكرية إلى جيوشها باليمن بحراً عبر قناة السويس . وعلى ذلك ، فنى عام ١٨٧٢ استطاع الأتراك أن يغزوا اليمن من جديد دون مساعدة شريف مكة(١) .

تجدد الصراع على الشرافة :

وعندما تولى عبد الحميد الثانى عرش السلطنة عام ١٨٧٦ ، كان يتولى إمارة مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون منذ عام ١٨٥٨ ، ولكن السلطان عزله فى العام التالى لتوليه العرش أى عام ١٨٧٧ ، وعين مكانه أخاه الشريف حسين بن محمد بن عون الذى استمر متولياً شرافة مكة حتى قتل بطعنة سكين فى جدة عام ١٨٨٠(٢) ، فأعاد عبد الحميد الثانى الشرافة إلى ذوى زيد فى شخص الشريف عبد المطلب بن غالب ، الذى كان قد تولى الشرافة قبل ذلك مرتين ، الأولى من ١٨٢٧ إلى ١٨٢٨ والثانية من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٦ .

غير أن إعادة الشرافة إلى ذوى زيد أغضب ذوى عون ، فأرسلوا

---

(١) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 253.

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 114 ; de Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, p. 254.

ويقول ابن دحلان إن الذى قتله كان رجلا من الأفغان « تعرض له وهو راكب فى موكبه عند دخوله جدة ، فزاحم العساكر حتى اتصل به كأنه يريد تقبيل يده ، فطعنه بسكين فتوفى بعد يومين بجدة ، فحمل على أعناق الرجال وجىء به مكة ودفن بقبة السيدة آمنه رضى الله عنها وعمره اثنتان وأربعون سنة ، وقرر الأفغانى الذى قتله وعمن أمره بذلك ، فلم يقر بشىء بعد تعذيبه بأنواع العذاب ثم قتل خنقاً » (انظر تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص ١٦٤) .

وفداً إلى الآستانة لتحريض الباب العالى ضد الشريف عبد المطلب الذى تولى الشرافة للمرة الثالثة (١٨٨٠ — ١٨٨١) . ولجأ الوفد فى العاصمة العثمانية إلى وسيلتين لتحقيق أغراضه :

١ — اتصل أعضاء الوفد بالسفير البريطانى وحثوه على وجوب اعتماد بريطانيا على ذوى عون دون غيرهم فى اتصالات بريطانيا مع أمراء شبه الجزيرة العربية ، ورددوا على مسامعه ما كان قد أشيع بأن الشريف السابق حسين بن محمد بن عون قد قتل لأنه كان صديقاً للإنجليز وعلى صلة سرية بهم .

٢ — اتصل أعضاء الوفد بالسلطان وحدثوه عن صداقة الشريف عبد المطلب بن غالب لمدحت باشا . وكان الأخير قد عزل من الصدارة العظمى عام ١٨٧٧ بسبب مشاريعه الإصلاحية ونفاه السلطان إلى خارج البلاد ، ثم سمح له بعد مدة بالعودة إلى تركيا وعينه والياً على سوريا فأزمير ، ولكنه فى آخر الأمر اتهمه بقتل السلطان عبد العزيز ونفاه إلى الطائف . ويبدو أنه كان بسبب وشايات وفد ذوى عون أن أرسل السلطان إلى الشريف عبد المطلب يأمره بقتل مدحت باشا غدراً ، إلا أن الشريف رفض تنفيذ الأمر ، فما كان من عبد الحميد إلا أن أصدر فرماناً بعزله(١) .

وكلف السلطان القائد التركى عثمان نورى باشا بتنفيذ فرمان العزل مع اتخاذ ما يلزم من إجراءات لمنع الشريف المعزول من الهرب إلى البدو أو إلى الطائف ، فوصل عثمان باشا على رأس قوات تركية جديدة إلى الحجاز فى نوفمبر عام ١٨٨١ ، وأمر جنوده بمحاصرة قصر الشريف الصيفى فى المثنى دون توجيه أى إنذار للشريف ، كما نصب المدافع على التلال المجاورة ووجه فوهاتها نحو القصر . وفى أثناء ذلك كان الأشراف العبادلة قد جمعوا

---

(١) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ص ٣٥ .

رجالهم بسرعة ، واحتشدوا غير بعيدين عن القصر استعداداً للتدخل ضد الشريف عبد المطلب . وفى الفجر اقتحم القائد العثمانى القصر وقرأ على الشريف فرمان العزل واقتاده مقبوضاً عليه إلى الطائف وزج به فى سجنها ، ثم نقل من هناك فيما بعد إلى بيته بالقرب من منى ، حيث قضى بقية حياته حتى توفى فى ٢٩ يناير عام ١٨٨٦(١) .

وبعد عزل الشريف عبد المطلب بن غالب ، أقام عثمان نورى باشا الشريف عبد الله بن محمد بن عون أميراً على مكة ، ولكن السلطان عبد الحميد الثانى استبدل عام ١٨٨٢ الشريف عون بن محمد المعروف بعون الرفيق بأخيه عبد الله ، ثم عين الأخير وزيراً فى الآستانة نكاية بذوى زيد ومكافأة لذوى عون الذين نفذوا أمر السلطان ، فقتل مدحت باشا فى سجنه بالطائف شر قتلة فى أبريل عام ١٨٨٣ .

ومع أن شرافة مكة قد فقدت خلال العقدين الثامن والتاسع الكثير من نفوذها التقليدى ، وخسر الحجاز استقلاله الذاتى الذى كان يتمتع به من قبل ، وأصبحت الأمور هناك تجرى وفق مشيئة الوالى التركى ، فقد استمرت المنافسة على الشرافة على أشدها بين ذوى عون أنفسهم من جهة ، ثم بينهم مجتمعين وبين ذوى زيد من جهة أخرى .

فقد أحنق الشريف حسين بن على - وهو من ذوى زيد - أن تصبح الشرافة من نصيب عمه عون الرفيق بدلاً من أن تكون من نصيبه هو وحده ؛ ولذا أخذ ينشر الاتهامات ضد عمه ، حتى غضب العم وأرسل يشكوه إلى السلطان ، فما كان من عبد الحميد إلا أن أرسل يدعو الشريف حسين وأسرته للاقامة فى استانبول . وعلى ذلك ، فمنذ عام ١٨٩٣ أقام الشريف حسين مع أسرته وأبنائه الثلاثة : على وعبد الله وفيصل فى

(١) De Gaury, Gerald : op. cit., pp. 255-6.

العاصمة العثمانية(١) .

ويقول عبد الله (ملك شرق الأردن فيما بعد) فى مذكراته : « لقد كانت إقامتنا باستنبول إقامة جبر وإكراه ... وبالرغم من أن السلطان عبد الحميد الثانى ، لما مثل والدى فى حضرته يوم وصوله الآستانة ، قال له إنه إنما استدعاه لينشئه ويرجو منه أن يخدم الدولة ويخدمه . وبالرغم من أنه عينه عضواً فى شورى الدولة وأمر بأن تهيأ له دار ساحلية فى البسفور وتفرش ، فقد كان فى الحقيقة ورغم هذه الاعتبارات ، أخذ إلى الآستانة نفياً وتغريباً ، بناء على معارضة سياسة الظلم والاعتساف بالحجاز ، وأخذ الأموال الطائلة من الحجاج بشتى الأسباب ، تلك السياسة التى اختطها ولاة الحجاز والأمير عون الرفيق »(٢) .

ويرى بعض الكتاب أن إمارة مكة على عهد عون الرفيق بلغت منتهى ضعفها وغاية هبوطها ، وأدى إهمال الشريف لأمور البادية أن ساء الأمن وعم القلق وانتشرت الفتن . وكان هم الشريف التظاهر بالبله والأعمال الجنونية لكى يكون السلطان راضياً عنه . واتفقت مصلحة الوالى العثمانى الشخصية مع مصلحة الشريف فتقاسما المصالح حتى أنَّت الناس من الجور والظلم إلى أن توفى الشريف عون الرفيق عام ١٩٠٥(٣) . ورغم تدهور أحوال الحجاز ، فقد كان يحظى وقتئذ باهتمام خاص من جانب الدولة العثمانية .

الحجاز وسياسة عبد الحميد الإسلامية :

ويرجع اهتمام الدولة العثمانية بالحجاز إلى سياسة السلطان عبد الحميد الثانى الإسلامية واحتضانه لفكرة الجامعة الإسلامية ، تلك الفكرة التى

(١) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 261.

(٢) مذكرات الملك عبد الله ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٥ .

كان السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) رائدها وداعيتها الأكبر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فقد كان الأفغانى يؤمن بقوة الوحدة الإسلامية ويسعى إلى إقامة حكومة إسلامية قوية ينضوى إلى رايتها جميع شعوب الإسلام(١) ، بهدف مقاومة الأطماع الأوروبية فى العالم الإسلامى والقضاء عليها والتخلص منها .

ويلخص لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى» دعوة الأفغانى وفكرة الجامعة الإسلامية على النحو التالى:

« العالم النصرانى ، على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشياً فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

« تنتحل الدول النصرانية أعذاراً فى كرهها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها ، بقولها إن الممالك الإسلامية

(١) عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغانى ص ٥٥ .

هذه إنما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها. وفوق جميع هذا ، فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هدا من ناحية ، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الإصلاح والنهضة .

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التى تجول فى صدره ثم تمثلها بصورة الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فإن ما يدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وإن ما يدعونه عندهم فى الغرب إباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ، والعزة القومية ، يعدونه فى الشرق غلواً مكروهاً ، وإفراطاً فى حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشنأة للأجنبى الغربى .

« جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقـــدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته »(١) .

وعلى العموم ، فإن دعوة الأفغانى للوحدة الإسلامية كانت تقوم على ركنين أساسيين :

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (ترجمة عجاج نويهض) .

أولا — الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة ، باعتبار أن الحج ليس فريضة دينية فحسب ، بل هو كذلك بمثابة مؤتمر إسلامى سنوى كبير ، يلتقى فيه المسلمون من كافة أرجاء الأرض ، حيث يتعارفون و « يتباثون العواطف الدينية ويتباحثون فى الشؤون الإسلامية » ويضعون الخطط ويرسمون الطرائق للدفاع عن الإسلام والمسلمين .

ثانياً — التفاف المسلمين شعوباً وحكومات حول السلطان العثمانى ، باعتباره خليفة المسلمين وحامى حمى الإسلام .

وكان أن التقت دعوة الأفغانى للوحدة الإسلامية مع أهداف السلطان عبد الحميد الثانى السياسية ، فتبنى عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية لثلاثة أسباب :

أولا — باعتبار الجامعة الإسلامية أداة تضمن التفاف العالم العربى حول الخلافة العثمانية ، فتتدعم السيطرة العثمانية على الولايات العربية ، فى وقت كانت الدولة العثمانية تفقد أملاكها فى البلقان بسرعة فائقة .

ثانياً — إن السلطان عبد الحميد الثانى — وهو المعروف باستبداده — كان يبغى من تأييده لحركة الجامعة الإسلامية تأكيد هذا الاستبداد ، اعتقاداً منه بأن فكرة الجامعة الإسلامية تعنى الحكم الاستبدادى للخليفة ، فيطارد بذلك الحركة الدستورية التى أخذت تلح فى الدولة العثمانية آنذاك .

ثالثاً — كان عبد الحميد الثانى يهدف من وراء فكرة الجامعة الإسلامية إلى اتخاذها أداة للضغط على الدول الأوروبية . وذلك إذا التفت حوله الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية الخارجة عن نطاق الإمبراطورية العثمانية والتى كانت تسيطر عليها الدول الأوروبية ، وبالذات الشعوب العربية فى المغرب العربى والمسلمون فى الهند والتتر فى روسيا القيصرية[1].

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٣٨

ويقول البروفسور جب Gibb إنه « على الرغم من أن السيد جمال الدين الأفغانى كان صريحاً فى فضح الاستبداد والحكم الفاسد اللذين وجدهما سائدين فى الممالك الإسلامية المستقلة ، ولم يكونا أقل سيادة فى الإمبراطورية العثمانية ، إلا أن المثل الأعلى لفكرة الجامعة الإسلامية كان مغرياً جداً . وكانت المصالح والعواطف التى أهاب بها من القوة بحيث أن الفكرة أمكنها أن توقظ شعوراً يعطف عليها فى كل جزء من الأمة الإسلامية . وإنه وإن كانت الفكرة قد قوبلت بأعظم الحماس لدى الذين لم تكن لهم خبرة شخصية بحكومة الإمبراطورية العثمانية ولا سيما لدى مسلمى الهند الذين شعروا بعد سحق أسرة المغول بالحاجة إلى التأييد الخارجى أمام خطر النهضة الهندوكية ، فقد كان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية من جديد وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت » [1] .

والواقع أنه كان فى إطار سياسة عبد الحميد الثانى الإسلامية وتبنيه لفكرة الجامعة الاسلامية أن حظى الحجاز — بصفته مركز الحرمين الشريفين — باهتمام السلطان وعنايته . ويتضح ذلك من أعمال السلطان فى الحجاز ، وأهمها ما يلى :

أولا — زيادة الأموال التى كانت تدفع للبدو النازلين على طول طريق الحج .

ثانياً — رصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين الشريفين .

ثالثاً — إنشاء سكة حديد الحجاز .

وكان السلطان قد أعلن فى أبريل عام ١٩٠٠ إلى العالم الإسلامى عن

(١) جب : وجهة الإسلام . نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى ص ٣١ (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده) .

عزمه على بناء خط حديدى من دمشق إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة المنورة ، وأهاب بالمسلمين فى شتى أرجاء العالم أن يكتتبوا بأموالهم لهذا المشروع ، وحرص السلطان على أن يكون على رأس قائمة المكتتبين ، فاكتتب بما قيمته ربع مليون دولار . وفى عام ١٩٠٤ بلغ قيمة ما جمع من تبرعات من العالم الاسلامى زهاء ثلاثة أرباع مليون دولار . وفضلا عن ذلك ، فقد أمر السلطان بخصم ما قيمته ١٠ ٪ من مرتبات جميع موظفى الإمبراطورية المدنيين والعسكريين لصالح المشروع . ويقدر مجموع الأموال التى جمعت أخيراً للمشروع بحوالى خمسة عشر مليون دولار . ومع أن المهندسين الذين أشرفوا على المشروع الذى بدىء العمل به فى ربيع عام ١٩٠٠ كانوا من الإيطاليين ، إلا أن الذين قاموا بالدور الأكبر فى بناء الخط الحديدى كانوا من جنود الجيش والفلاحين . وفى وقت من الأوقات بلغ عدد العاملين فى بناء الخط حوالى سبعمائة ألف شخص . وفى ٣١ أغسطس عام ١٩٠٨ — أى فى عيد جلوس السلطان الثانى والثلاثين — وصل الخط الحديدى إلى المدينة المنورة(١) .

ولا يخفى أن الغرض الظاهر من إنشاء هذا الخط الحديدى كان خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى الأراضى المقدسة ، فى حين أن الغرض الحقيقى كان يتعلق بمسائل سياسية وعسكرية :

فمن الناحية السياسية ، كان عبد الحميد الثانى يبغى أن يساعد بناء هذا الخط على خضوع رعاياه له وتقبلهم لحكمه الاستبدادى . وفى ذلك يقول السفير البريطانى فى الآستانة فى تقريره لعام ١٩٠٧ إلى حكومته : « يمكننا أن نقرر بأنه بين حوادث السنوات العشرة الأخيرة على الأقل ، يوجد عنصران بارزان فى الموقف السياسى العام : أولهما خطة السلطان الماهرة التى

---

(١) Earle, E.M. : Turkey, The Great Powers, and the Bagdad Railway, p. 27.

استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الروحى للدين الإسلامى ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية ، ببناء سكة حديد الحجاز ، التى ستمهد الطريق أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج . وبهذا تنفتح له ولهم أبواب الحياة الأخرى . وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له بشكل لم يسبق له مثيل ، فباتوا نتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادى الذى قد لا نجد فى جميع أدوار التاريخ ما يحاكى شدته . فإذا ماكتب لمسلم أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسى من جانب الحكومة ، أعلن شكواه من الموظفين دون أن ينسب للخليفة أى شىء » . ثم تحدث السفير عن العنصر البارز الثانى وهو علاقة عبد الحميد الثانى بإمبراطور ألمانيا .

أما من الناحية العسكرية ، فقد كان غرض عبد الحميد الثانى من بناء خط حديد الحجاز هو إيجاد وسيلة فعالة للنقل البرى تحمل جنوده إلى شبه جزيرة العرب ، ومنها إلى أطرافها ، وخاصة اليمن المضطرب . ومما يجدر ذكره أن هذا الطريق البرى قد فاق الطريق البحرى عبر قناة السويس من ناحية السرعة والسهولة . فقد كان الطريق البحرى يستغرق حوالى اثنى عشر يوماً من ساحل الشام إلى الحجاز . فى حين كان الطريق البرى لا يستغرق سوى أربعة أو خمسة أيام على الأكثر . وعلاوة على ذلك ، فإن الدولة العثمانية لم تكن تملك وقتئذ الكثير من السفن الصالحة التى يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ سياسة عبد الحميد الثانى العسكرية فى شبه جزيرة العرب .

وعلى العموم ، فقبل أن يصل الخط الحديدى إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨ ، كان الشريف عون الرفيق قد قضى نحبه منذ عام ١٩٠٥ ، فتولى شرافة مكة أحد أقربائه وهو على بن عبد الله بن محمد بن عون (١٩٠٥ — ١٩٠٨) الذى ترك الحجاز ليعيش فى مصر بعد ثورة ١٩٠٨ فى تركيا ، وعين

الباب العالى بدلا منه فى شرافة مكة الشريف عبد الإله ، وهو أخ لعون الرفيق ، ولكنه كان مسناً وتوفى فى استانبول قبل أن يتسلم الشرافة فعلا(١) .

الاتحاديون والحجاز :

ونجم عن وفاة الشريف عبد الإله أن صار كل من الشريف الحسين ابن على والشريف على حيدر(٢) يبذلان قصارى جهدهما فى المسعى لدى الباب العالى للظفر بمنصب شرافة مكة . وكان الشريف على حيدر – وهو حفيد الشريف عبد المطلب بن غالب من ذوى زيد – يرى أنه أحق بالشرافة من الحسين بن على ، وجدير به أن يرجعها إلى ذوى زيد . أما الحسين ابن على ، فكان كما سبق القول يقيم مع أسرته وأبنائه الثلاثة : على وعبدالله وفيصل فى استانبول منذ عام ١٨٩٣ ، بناء على دعوة السلطان عبد الحميد الثانى له بسبب الخصومة التى كانت بينه وبين عمه الشريف عون الرفيق .

ويروى عبد الله فى مذكراته ما قام به من أجل إعطاء الشرافة لأبيه الحسين ، فيقول : « سعيت أنا لدى والدى للمطالبة بحقه من الإمارة ، من حيث أنه الأحق الأكبر ، فأقنعته بعد جهد ، وقبل تسطير مذكرة بهذا الطلب إلى جلالة السلطان بوساطة الصدر الأعظم كامل باشا . وكانت المذكرة كما يلى : « بناء على وفاة عمى الشريف عبد الإله بن محمد أمير مكة ، بعد عزل ابن عمى الشريف على بن عبد الله بن محمد وخلو مقام الإمارة ، ولكونى أسن العائلة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء ، استرحم جلالة السلطان أن يتكرم بايصالى إلى حق الذى لايخفى على جلالته مع صداقتى وإخلاصى» . وأخذت المذكرة بنفسى ، وذهبت بها إلى الصدر الأعظم كامل باشا ودفعتها

(١) De Gaury, Gerald : op. cit., p. 261.
ثم انظر مذكرات الملك عبد الله المنشورة عام ١٩٥٠ باللغة الانجليزية :
Memoirs of King Abdullah of Transjordan (ed. by P.P. Graves) p. 43.

(٢) انظر سيرته فى الكتاب التالى :
Stitt, G. : A Prince of Arabia (1948).

إليه . . . . (ثم) كتبت برقية إلى مقام السلطنة قلت فيها « نظراً لشغور مقام الإمارة الجليلة بمكة المكرمة ، ولكونى صاحب الحق ، فاننى أنتظر من الأعطاف السنية السلطانية عدم حرمانى حقى وتعيينى فى مقام آبائى » ، وعنونتها بثلاثة عناوين للعرض على السلطان : بوساطة الصدارة العظمى إلى الأعتاب السنية ، وبوساطة مشيخة الإسلام العليا إلى الأعتاب السنية ، وبوساطة رئيس كتاب القصر السلطانى إلى الأعتاب السنية »(١) .

وكان رجال الاتحاد والترقى يميلون بادىء ذى بدء إلى إعطاء إمارة مكة للشريف على حيدر ، ولكن « ظروفاً خاصة جعلتهم يختارون الحسين على الرغم من صداقته للسلطان » عبد الحميد الثانى . وكان من العوامل التى ساعدت الحسين بن على ، على تبوؤ شرافة مكة ما يلى(٢) :

أولا – الوعود الكثيرة التى صار الحسين يبذلها للدولة بمقاومة الأمراء الثائرين فى عسير ونجد واليمن .

ثانياً – حاجة الاتحاديين إلى أمير عربى قوى يبطش لهم بالمعارضين فى شبه الجزيرة العربية ، بعد أن خرج آل الرشيد عليهم بالرغم من ولائهم السابق للدولة ، حتى اقتسم النفوذ فى شبه الجزيرة عدد من الأمراء الذين لا يقيمون للدولة وزناً كبيراً .

ثالثاً – حاجة الحكومة المركزية فى استانبول إلى أمير مكة لإنجاح مشروع سكة حديد الحجاز وحماية الخط من غارات البدو . وكان هذا الخط قد وصل كما عرفنا عام ١٩٠٨ إلى المدينة المنورة ، وأريد الآن مده إلى مكة .

ولهذه الأسباب إذن مال الاتحاديون إلى جانب الحسين بن على ،

(١) مذكرات الملك عبد الله ص ٣٥ .

(٢) أنيس صايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى ص ٣٧ .

فعينوه فى سبتمبر عام ١٩٠٨ أميراً على مكة ، ومنذ هذا الوقت حرص الحسين على إظهار ولائه للاتحاديين ، الذين أصبح لهم النفوذ الأعلى فى الدولة بعد عزل السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٩ . ومع أن الشريف حسين ناضل ضد تدخل هؤلاء فى شئون إمارته ، إلا أنه صار يبذل قصارى جهده لتأييد نفوذ العثمانيين فى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ويتحد معهم فى مناوأة أعدائهم . والسبب فى ذلك أن الحسين أراد أن يتخذ من ولائه الظاهر للأتراك ستاراً يخفى وراءه أطماعه الحقيقية ، والتى كانت تدور وقتئذ حول توسيع سلطان شرافته على القبائل فى المناطق التى كان قد تقلص نفوذها عنها أيام شرافة عمه عبد الله بن محمد بن عون (١٩٠٥ — ١٩٠٨) .

وعلى ذلك ، فاستجابة لرغبة الدولة ، سير الحسين بن على عام ١٩١٠ الحملات إلى عسير ضد السيد محمد على الإدريسى الذى تزعم الثورة بها ضد الأتراك . وسير الحسين كذلك الحملات إلى إقليم القصيم ، وكاد يشتبك فى قتال مع عبد العزيز آل سعود أمير نجد خدمة للاتحاديين . وتعددت مناورات الشريف حسين لإزعاج ابن سعود خلال سنتى ١٩١١و١٩١٢[١] . وحتى سنة ١٩١٣ كان الشريف لايزال يحرض القبائل ـ خصوصاً عتيبة ـ على ابن سعود[٢] .

ومع ذلك ، فقد كانت علاقات الشريف حسين بالاتحاديين آخذة فى التوتر ، ويرجع ذلك إلى سياسة الاتحاديين القائمة على المركزية الإدارية الصارمة وإلغاء الامتيازات التى تمتعت بها من قديم إمارة مكة ، فدأبوا على التدخل فى شئون الولايات ، وراح أنصارهم فى الحجاز يعملون لتقييد سلطة الشريف . ولما كان الأخير حريصاً على دعم مركزه فى شرافة

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٩٠ — ١٩٢ .

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ص ٢٠٣ .

مكة وبقاء هذه الإمارة فى ذوى عون ، فقد كانت سياسة الاتحاديين هذه كفيلة بأن تجعله ينقلب على الدولة ويستعين عليها ببريطانيا ، التى لوحت له بإمكانية تبوئه منصب الخلافة مقابل إعلانه الثورة على الأتراك . وفى ١٠ يونيه عام ١٩١٦ أعلن الشريف حسين بالفعل الثورة على الدولة العثمانية ، وهى الثورة التى خدمت استراتيجية الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، وانتهت فى أكتوبر عام ١٩١٨ بتحرير الحجاز وبلاد الشام من الحكم العثمانى .

الفصل الخامس

محاولات التوسع العثمانى فى نجد

لم يمتد الحكم العثمانى إلى قلب شبه جزيرة العرب بعد سقوط الحجاز واليمن فى أيدى العثمانيين ، بل تركز على أطرافها الغربية ، أو بالأحرى على سواحل البحر الأحمر الشرقية . وفى خلال العقد الخامس من القرن السادس عشر حاولت الدولة العثمانية غزو وسط شبه الجزيرة العربية ، فأرسل السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) حملة كبيرة حوالى عام ١٥٥٠ بقيادة باشا دمشق لإخضاع قبائل شمر ونجد . إلا أن هذه الحملة – كما يقول جاك بنوا مشين – شأنها شأن الجيوش الأجنبية التى تغزو الصحراء تلاشت دون أن تترك وراءها أثراً مثل الأخوار التى تبتلعها الرمال [١] .

وفى أوائل العقد الأخير من القرن السادس عشر غزا الأتراك العثمانيون بمساعدة قبائل المنتفك مقاطعة الأحساء واحتلوها ، وعينوا عليها فاتح باشا أول والٍ عليها بعد إخضاع عشيرة أجود بن زامل الجبرى العقيلى القيسى [٢]. ولا شك أن مركز الأتراك العثمانيين قد قوى فى الجزء الشرقى من شبه جزيرة العرب عندما استعادوا بغداد من الاحتلال الفارسى عام ١٦٣٨ فى عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠) . ولا شك كذلك أن وضع الأتراك فى هذا الجزء الشرقى من شبه الجزيرة قد تحسن كثيراً إبان عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧) عندما احتل مصطفى باشا مدينة البصرة عام ١٦٦٧ ، إلا أن الحكم العثمانى فى الأحساء لم يلبث أن

---

(١) Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, pp. 45-6.

(٢) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, pp. 10-11.

انتهى عام ١٦٧٠ بفضل قبيلة آل حميد من بنى خالد التى ظلت تناضل الأتراك نضالا مريراً طوال ثمانين عاماً تقريباً [١] . وفى خلال هذه الفترة تداول حكم الأحساء من الأتراك العثمانيين أربعة باشوات ، هم فاتح باشا ثم على باشا فمحمد باشا ، وأخيراً عمر باشا ، الذى استسلم لبراك بن غرير آل حميد الخالدى (٢).

وعلى هذا النحو انهار سلطان الأتراك فى شرق شبه الجزيرة العربية منذ أوائل العقد السابع من القرن السابع عشر ، كما انعدم سلطانهم على قبائل نجد وشمر واكتفوا منذ منتصف القرن السادس عشر بممارسة سيادة اسمية على وسط شبه الجزيرة العربية (٣). وكان من العوامل التى ساعدت على ذلك:

١ – استقلال اليمن عام ١٦٣٥ وانسحاب الجيوش العثمانية منها .

٢ – تحول النفوذ العثمانى إلى سيادة اسمية بحتة فى الحجاز .

٣ – ضعف هيبة سلاطين آل عثمان بعد مراد الرابع وانشغالهم بالفتن الداخلية والحروب الخارجية .

الإمارة السعودية الأولى :

وعمل بنو خالد منذ أن طردوا الأتراك العثمانيين من الأحساء على بسط نفوذهم على المناطق المجاورة ، واستطاعوا بالفعل أن يسيطروا على الشواطىء الغربية للخليج العربى من شبه جزيرة قطر جنوباً إلى البصرة شمالا ، كما راحوا يتدخلون فى شئون نجد . وعلى أواخر القرن السابع عشر

---

(١) Philby, H. St. J. : Saudi Arabia, p. 25.

(٢) أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ٤٨ .

(٣) Benoist-Méchin, J. : op. cit., p. 46.

كان سكان نجد يعترفون بأن شيخ بنى خالد هو أقوى جيرانهم ، فسعوا إلى إرضائه بالهدايا وتقديم فروض الطاعة .

على أنه فى الوقت الذى تجمعت فيه خيوط النفوذ فى شرقى شبه الجزيرة العربية بيد شيخ بنى خالد ، كانت نجد وشبه الجزيرة عموماً باستثناء عمان واليمن والحجاز لا تزال تشكو من الافتقار للوحدة . إذ كانت مقسمة إلى عدد كبير من المقاطعات أو المدن المستقلة التى تحكم نفسها برئاسة أمير أو شيخ إحدى القبائل الذى يستند إلى عصبية قوية . وكان الدين لا يزال بين هذه القبائل فى شكله البدائى إلى حد كبير ، إذ أهملت شعائره بين سكان المدن ، وتوقف العمل بهذه الشعائر بين أفراد القبائل [١] . ويتضح مما رواه الرحالة وليم جيفورد بلجريف William Gifford Palgrave (١٨١٦-١٨٨٨) أن الكثير من البدع والخرافات والعادات المتصلة بعبادة الصابئة كعبادة الشمس والقمر والنجوم التى كانت منتشرة فى عصر الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، كانت لا تزال تجد مكاناً لها بين القبائل ، كما أن عمليات الختان وشعائر الزواج المقدسة كانت قد توقفت تماماً (٢) .

ولم يشعر أمراء نجد أوشيوخ قبائلها بالخوف على سلطانهم من الضياع قبل عام ١٧٤٥ ، حين بدأت قوة الدرعية فى الظهور على حيز السياسة العامة فى نجد ، بعد أن لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى محمد بن سعود أمير الدرعية وتحالف معه على نشر الدعوة الوهابية وإقامة دولة الموحدين فى نجد [٣] . ولا يخفى أن انتشار البدع والخرافات وارتداد القبائل إلى ممارسة عادات الجاهلية الذميمة ، كان مبعث ظهور الدعوة الوهابية على يد الشيخ

---

(١) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 111.

(٢) انظر كتاب رحلة بلجريف بعنوان :
A Narrative of a year's journey through Central and Eastern Arabia, 2 vols., London, 1865.

(٣) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٥ .

محمد بن عبد الوهاب ، الذى أخذ يعمل فى سبيل تهذيب عادات سكان نجد وتنقية التعاليم الدينية مما شابها من ضلال وشرك . وكان لب دعوته الرجوع بالدين إلى الوحدانية ، فلا مصدر إلا القرآن الكريم ولا حكم إلا حكم السنة .

ولقى ابن عبد الوهاب فى أول الأمر من الاضطهاد ما حمله على الالتجاء إلى محمد بن سعود أمير الدرعية من مدائن نجد ، فأقام هناك ينشر دعوته بين جماهير المسلمين حتى توافد على خلوته الألوف من المؤمنين المتلهفين على تعزيز الدين . وفى عام ١٧٤٥ اعتنق محمد بن سعود الدعوة الوهابية وتعهد بنشرها فى بلاد العرب ، وبايعه ابن عبد الوهاب على أن يكون إماماً يتبعه المسلمون . وأصبحت الدعوة الوهابية منذئذ دعوة دين ودنيا ، وطمحت إلى توسيع نطاق نشاطها فى بلاد العرب قاطبة ، واقترنت بتحدى سيادة العثمانيين .

وقضى محمد بن سعود نحبه عام ١٧٦٥ ، فخلفه ابنه عبد العزيز الذى صار يغزو فى شبه جزيرة العرب « شمالها وشرقها وجنوبها » [١] ، ففتح الرياض ثم القصيم وغزا الأحساء ، كما وجه سراياه إلى الجوف شمالى النفود واستولى على وادى السرحان وضمه إلى حكمه ، وسار ابنه سعود فى طريقه ، فغزا مقاطعة الخرج والأفلاج ووادى الدواسر ووصل فى فتوحاته إلى عسير غرباً وإلى عمان جنوباً (٢) .

ومن الجدير بالذكر أن آل سعود قد اتخذوا من بنى خالد موقف المدافع لا المهاجم مدى عشرين سنة ، أى منذ عام ١٧٤٥ إلى عام ١٧٦٥ ، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك موقف المهاجم . إذ توالت غزواتهم على أرض الأحساء واشتدت بنوع خاص فى الفترة ما بين ١٧٩٣ و١٧٩٥ حتى تم لهم القضاء

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٤٦ .

(٢) فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

على نفوذ بنى خالد فى الأحساء وشرقى شبه الجزيرة العربية (١) .

وكان محمد بن عبد الوهاب قد توفى عام ١٧٩٢ ، وقت أن كانت جيوش الشريف غالب بن مساعد شريف مكة زاحفة من الحجاز لمحاربة أهل نجد دون طائل ، ووقت أن كان سعود يحارب عرب المنتفك خارج البصرة(٢) وفى أوائل عام ١٧٩٩ أعد سليمان باشا والى العراق حملة كبيرة لا يقل عددها عن ثمانية عشر ألفاً من الفرسان والجنود النظاميين والبدو لغزو الأحساء . وأسرع أهل الهفوف والمبرز وقرى الواحة الأخرى بإعلان خضوعهم لقائد الحملة على الكيخيا (الكرجى) ، إلا أن حاميات حصون الهفوف والمبرز تحدت الغزاة ، الذين وجهوا فى البداية اهتمامهم إلى المبرز . ولمدة شهرين كاملين ، من أوائل فبراير إلى أوائل أبريل عام ١٧٩٩ ، حاول على الكيخيا احكام الحصار على حامية المبرز الصغيرة التى لم يتجاوز عددها المائة ، ومع أنه أحدث بعض الصدوع فى أسوار الحصن ، إلا أنه فشل فى الاستيلاء عليه . وعندما سمع بوصول جيش سعود لنجدة الحاميات المحاصرة ، اضطر إلى رفع الحصار والعودة من حيث أتى(٣) وعندئذ وضع سعود يده على الأحساء وعاقب العناصر التى أعلنت خضوعها للأتراك(٤).

وتلا ذلك أن غزا سعود عام ١٨٠٠ كربلاء والمدن العراقية الجنوبية وأزال رجاله منها القباب والمشاهد (٥) ، ونقلوا ما فيها من كنوز الشيعة الموروثة من الذهب والفضة والرياش الثمين . وكان من العوامل التى أعانت سعود على الاستيلاء على الأحساء وغزو العراق الجنوبى ، وجود الحملة

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص٥١ .
(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٤٧ .
(٣) Philby, H. St. John : Saudi Arabia, pp. 91-92.
(٤) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 114.
(٥) أحمد على: آل سعود ص ٤٨ .

الفرنسية فى مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) وانشغال الدولة العثمانية بمواجهتها (١).

ولم يمض وقت طويل حتى اتجه السعوديون إلى الحجاز ، فدخلوا بقيادة سعود مكة عام ١٨٠٣ من غير أن يستل الشريف غالب سيفاً واحداً للدفاع عنها ، بل آثر الهرب إلى جدة (٢) . وعين سعود الشريف عبد المعين بن مساعد شقيق غالب أميراً على مكة . وكان بعد عامين أن استولى السعوديون فى عهد سعود بن عبد العزيز الملقب بالكبير (١٨٠٣ — ١٨١٥) على المدينة المنورة ، وأخذوا «كل ما فى الحجرة النبوية من الجواهر» ، وتغالوا فى مطاردة المخالفين من أهل الحجاز وهدم قباب المساجد ومحاربة كل ما لا يتفق مع ما آمنوا به من بساطة الإسلام الأولى . وبعد سقوط الحجاز اتجهت أنظار السعوديين إلى الشمال ، فوصلوا إلى حوران والكرك ووقفوا منتصرين على أبواب الشام وفلسطين ، وأوقعوا الهزيمة بجند الدولة الذين خرج بهم والى الشام عبد الله العظم للحج فى عام ١٨٠٥ .

ولما تقلص نفوذ العثمانيين من شبه جزيرة العرب والحجاز خصوصاً ، وعجزت جيوش الدولة عن كسر شوكة السعوديين وإخضاعهم ، لجأ الباب العالى عام ١٨٠٧ إلى محمد على والى مصر وكلفه «بتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما» من أيدى السعوديين ، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال فى شبه الجزيرة .

غير أن محمداً علياً لم يلب طلب الباب العالى إلا فى عام ١٨١١ ، حين أرسل حملة إلى الحجاز بقيادة ابنه طوسون ، ثم أتبعها عام ١٨١٣ ، بحملة أخرى تولى هو قيادتها ، وأخيراً أرسل عام ١٨١٦ حملة ثالثة بقيادة ابنه ابراهيم أقدر أبنائه وأظهرهم بأساً . وزحفت الحملة من الحجاز صوب الدرعية

(١) Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, p. 52.
(٢) De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca, pp. 186-7.

عاصمة الإمارة السعودية ، واستولت فى طريقها على عنيزة وبريدة وشقرا ، ثم ضربت الحصار على الدرعية ، وكان حصاراً طويلا استمر من ٦ أبريل إلى ٩ سبتمبر عام ١٨١٨ ، وانتهى باستسلام الأمير عبد الله بن سعود(١) ودخول إبراهيم باشا الدرعية ، حيث أرسل من هناك الأمير السعودى فى حراسة مشددة إلى مصر ، ثم أرسل من القاهرة إلى الآستانة برجاء من محمد على بالعفو عنه . ولكن السلطان محمود الثانى شهر بعبد الله فى شوارع الآستانة ثلاثة أيام كاملة ، ثم أمر بإعدامه شنقاً فى الميدان المواجه لمسجد أيا صوفيا (٢) أما إبراهيم فقد مكث بالدرعية حوالى تسعة أشهر ، وقبل أن ينسحب منها فى عام ١٨١٩ عائداً إلى مصر ، قام بتدميرها تدميراً تاماً . وبذلك انهارت الإمارة السعودية الأولى على يد ابراهيم باشا ، وأصبحت نجد منذئذ تابعة لباشوية القاهرة (٣) .

تأسيس الإمارة السعودية الثانية :

واستمرت نجد تابعة لباشوية القاهرة ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاماً . وفى خلال هـــذه الفترة كانت القوات المصرية تحتل نجد أحياناً وتكتفى حكومة القاهرة بتسلم الجزية منها أحياناً أخرى . وتمتع الحكم المصرى أثناء وجود ابراهيم باشا فى نجد بسمعة طيبة ، خصوصاً فى جبل شمر والقصيم والأحساء ، حيث كان ابراهيم قد استقبل على حد قول هارولد ديكسون كمحرر من الحكم الوهابى (٤). غير أنه حدث بعد رحيل ابراهيم

(١) كان سعود بن عبد العزيز قد توفى بالدرعية فى عام ١٨١٤ .

(٢) Benoist-Méchin, J. : op. cit., p. 53.

(٣) بخصوص حملات محمد على فى شبه جزيرة العرب ، انظر :
Driault, E. : La formation de l'Empire de Mohamed Aly. De l'Arabie au Soudan (1814-1823). Le Caire, 1938 ; Weygand : Histoire militaire de Mohamed Aly et des Fils, 2 vols., Paris, 1936.

(٤) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 122.

باشا أن أثارت القوات التركية والألبانية بقسوتها واعتداءاتها المتكررة حفيظة الأهالى ، مما أدى إلى انتشار الفوضى وحدوث مذابح للأتراك على يد القبائل عام ١٨٢٢ فى الرياض عاصمة نجد الجديدة ، إذ أن الدرعية لم تشيد أبداً بعـــد تدميرها . ويقول فيلبى : « لم تكن المنازعات المميتة والمؤامرات وحوادث القتل التى تلت رحيل ابراهيم باشا عن القصيم وحريملة وغيرها من الأماكن سوى مجرد موجة من الرعب فى مجرى الحوادث الرئيسى الذى بدأ يظهر من خلال الفوضى الضاربة أطنابها »(١) .

وفى وسط هذه الفوضى راح تركى بن عبد الله آل سعود — الذى كان قد لاذ بإقليم الخرج عند استسلام الدرعية — يعمل منذ عام ١٨٢٢ لإعادة سيطرة آل سعود فى نجد ، ونجح فى ذلك عندما استسلمت حامية الرياض التركية فى اكتوبر عام ١٨٢٤ ، ودخل تركى الرياض ولم يلبث أن بايعه معظم أهل نجد (٢) . وفى خريف عام ١٨٢٩ زحف تركى وابنه فيصل على إقليم الأحساء الذى كان يعتمد عليه اقتصاد نجد إلى حد كبير ، وتمكنا من إعادة هذا الإقليم إلى حظيرة السيطرة السعودية (٣) .

والواقع أنه فى خلال عشر سنوات ، من ١٨٢٤ إلى ١٨٣٤ ، استطاع تركى أن يثبت سلطته فى نجد والأحساء وحتى عمان ، وأن يبسط نفوذه على طول شواطىء الخليج العربى حتى رأس الحد ، إلا أنه ظل مع ذلك يدين بالولاء والتبعية لباشوية القاهرة ويدفع لها الجزية (٤) . وفى صيف عام ١٨٣٤ اغتيل تركى وهو خارج من المسجد بعد صلاة الجمعة ، بتدبير من ابن أخته مشارى بن عبد الرحمن (٥) وخلفه ابنه فيصل .

(١) Philby, H. St. J. : Saudi Arabia, p. 150.

(٢) أحمد على : آل سعود ص ٨٦ .

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 161-3.

(٤) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 123.

(٥) أحمد على : آل سعود ص ٨٩ .

أبن عمه عبد الله بن ثنيان لم يلبث أن شق عصا الطاعة عليه واضطره إلى الفرار بنفسه وأهله إلى الأحساء . وبذ انتهى حكم خالد الذى استمر أقل من ثلاث سنوات ، وخلفه عبد الله بن ثنيان .

على أن حكم ابن ثنيان لم يستمر طويلا . فقد استطاع فيصل بن تركى أن يهرب فى فبراير عام ١٨٤٣ من سجنه بالقاهرة ويعود إلى نجد ليطالب بالعرش من جديد . وبعد مقاومة من جانب ابن ثنيان تمكن فيصل من دخول الرياض فى أواسط عام ١٨٤٣ ، حيث زج بابن ثنيان فى السجن وصادر جميع ممتلكاته ، ولكنه عفا عن أعوانه ، وأطلق سراح جميع الذين ألقى بهم ابن ثنيان فى السجن ، ثم عوضهم عما فقدوه من أملاك وسارع أهل الرياض يهنئون فيصلا بمناسبة توليه عرش أجداده بعد فترة تقل عن خمس سنوات(١) .

وامتدت المرحلة الثانية من حكم فيصل من عام ١٨٤٣ إلى عام ١٨٦٦ . وفى خلال هذه المرحلة لم تكن الآستانة أو القاهرة تمارس أى سلطة أو نفوذ فى نجد تحت أى شكل من الأشكال(٢). وتعتبر هذه المرحلة من حكم فيصل من عهود ازدهار الدولة السعودية أو على حد قول فيلبى « مدخل تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث » . إذ أنه لما كانت الحاميات التركية الصغيرة المبعثرة فى صحارى وسط شبه الجزيرة العربية قد انسحبت إلى الحجاز — والمدينة المنورة بالذات — إبان حكم ابن ثنيان القصير الأمد ، فلم تكن هنالك إذن قوات أجنبية تزعج فيصلا داخل مملكته ، مما ترتب عليه أن استأنفت نجد مجرى حياتها العادية ، الذى كان يتضمن الخروج للرعى أو الغزو خلال فصلى الشتاء والربيع من كل سنة ، وفترة راحة وخمول خلال شهور الصيف الحارة(٣) .

(١) Philby. H. St. J. : op. cit., pp. 192-3.

(٢) Dickson, H.R.P. : op. cit., pp. 123-4.

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 193-5 .

ولما كانت حكومة القاهرة قد أهملت منذ فترة شئون نجد وشرقى شبه الجزيرة العربية وركزت اهتمامها فى ساحل البحر الأحمر الشرقى مكتفية بأن تكون صاحبة الكلمة فى الحجاز وعسير واليمن ، فقد انتهز فيصل بن تركى هذه الفرصة فبدأ عهده بقطع الجزية التى كان يدفعها أبوه لباشوية القاهرة(١). ولا شك أن هذه الخطوة قد أثارت محمداً علياً ، فصمم على إخضاع فيصل لإرادته وتولية خالد بن سعود مكانه . وكان خالد هذا أحد أفراد العائلة المالكة الذين أخذهم ابراهيم باشا معه إلى المنفى فى مصر ، حيث أمضى زهاء ثمانية عشر عاماً .

وفى أواخر عام ١٨٣٦ أو بداية العام التالى ، وصل خالد إلى ينبع بصحبة اسماعيل أغا قائد الحملة المصرية التى قدر عددها بألفى مقاتل . وعندما اقتربت الحملة من نجد ، فر فيصل إلى الأحساء فى بداية شهر مايو عام ١٨٣٧ ، وراح يحشد جيشاً من قبائل مطير والعجمان وسبيع ومن مدن الأحساء وقراها ، كما انضم إليه أهل الخرج والحريق والحوطة .

وفى أوائل عام ١٨٣٨ وصل خورشيد باشا على رأس إمدادات ونجدات ليتولى قيادة الحملة المصرية خلفاً لإسماعيل أغا . ولم يلبث أن اشتبك خورشيد مع فيصل فى عدة معارك انتهت بهزيمة الأمير السعودى وأسره . وفى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٣٨ أرسل فيصل إلى القاهرة (٢)، وعين مكانه خالد بن سعود . وبذا بدأ ما يطلق عليه هارولد ديكسون احتلال المصريين الثانى لنجد (٣) ، وهو احتلال لم يطل أمده وانتهى بعد عامين باستدعاء القوات المصرية من شبه جزيرة العرب (١٨٤٠) .

ومع أن انسحاب القوات المصرية من كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية قد أتاح لخالد بن سعود الفرصة لكى يسير نحو الاستقلال فى نجد ، إلا أن

(١) Dickson, H.R.P.: op. cit., p. 123.

(٢) Philby, H. St. J. : Saudi Arabia, pp. 176-181.

(٣) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 123.

وعلى العموم ، فقد انصرف فيصل بعد تسلمه العرش إلى اختيار الموظفين الأكفاء للمناصب المختلفة فى أقاليم نجد ومقاطعاتها ، وعمل فى الوقت نفسه لاستعادة الأملاك التى فقدتها الإمارة السعودية ، وحقق بهذا الصدد نجاحاً كبيراً . فأخضع الأحساء وشتت شمل القبائل التى كانت تتنازع عليها خصوصاً المناصير وبنى مرة والعجمان ، وامتدت سلطته إلى القصيم والعارض حتى أطراف الحجاز وعسير وفضلا عن ذلك، فقد دانت له إمارة جبل شمر حيث كان يحكم آل الرشيد فى حائل .

ويرجع منشأ إمارة آل الرشيد فى حائل إلى عام ١٨٣٥ ، حينما كافأ فيصل إبان فترة حكمه الأولى عبد الله بن على الرشيد صديقه ونصيره فى القضاء على فتنة مشارى بن عبد الرحمن(١) ، بتعيينه حاكماً على جبل شمر بدلا من صالح بن عبد المحسن حاكم الجبل وقتذاك ، والذى كان يمثل مشيخة آل على الحاكمة فى حائل(٢). ولكن عبد الله لم يلبث أن أرغم قبائل وادى السرحان على الخضوع ودفع الزكاة له ، كما بسط نفوذه على سائر العشائر والقبائل فى جبل شمر وأطرافه(٣) . ويبدو أنه كان بسبب تشجيع أمير مكة الشريف محمد بن عون أن شعر عبد الله عام ١٨٤٦ أنه أصبح من القوة بحيث يستطيع الانفصال عن الرياض(٤). ومع أنه غدا منذ هذا الحين سيد جبل شمر المطلق ، إلا أن المنية عاجلته فى مايو عام ١٨٤٧ ، وقت أن كان الشريف محمد بن عون يغزو إقليم القصيم ، فخلفه ابنه طلال الذى سارع بعد عودة شريف مكة إلى الحجاز بتقديم فروض الولاء لفيصل .

---

(١) كان مشارى قد أسرع عقب اغتيال الإمام تركى بن عبد الله عام ١٨٣٤ باحتلال قلعة الرياض وإرغام أهلها على الاعتراف به أميراً .

(٢) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 173.

(٣) فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ص ٣٤٢ .

(٤) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 112 ; de Gaury, Gerald : op. cit., p. 247.

وعلى هذا النحو استطاع فيصل بن تركى أن يسترجع كل الأملاك تقريباً التى فقدتها الإمارة السعودية ويبسط نفوذه على الشطر الأكبر من شبه الجزيرة العربية .

والحقيقة أن الإمارة السعودية الثانية بلغت منذ منتصف القرن التاسع عشر درجة من القوة لم تلفت نظر حكومة الهند البريطانية فحسب ، بل كذلك فرنسا ، التى كانت يحدوها الأمل فى أن يمكنها مشروع حفر قناة السويس فى مصر من استعادة بعض ما فقدته إمبراطوريتها فى الشرق من نفوذ . ولذلك أرسل نابليون الثالث عام ١٨٦٢ وليم جيفورد بلجريف فى مهمة سياسية إلى شبه جزيرة العرب ، فزار فى غضون ١٨٦٢ - ١٨٦٣ جبل شمر وإقليم القصيم ، ونزل من بريدة إلى العارض عن طريق السدير ، وأقام فى الرياض وضواحيها خمسين يوماً ، ثم رحل إلى الأحساء ، ومنها إلى الخليج العربى(١) . ورغم أن بلجريف كان شديد اللهجة فى انتقاده للوهابية والوهابيين ، إلا أنه لم يستطع أن ينكر أن الأمن قد استتب فى البلاد خلال عهد فيصل ، فقال إن القوافل تجتاز القصيم والسدير والوشم ومقاطعات نجد الأخرى آمنة ، وأن التجار والحجاج والفلاحين يسيرون فى البلاد مطمئنين(٢) .

وكان بعد عامين من زيارة بلجريف للعاصمة الوهابية أن ظهر بها الكولونيل لويس بلى Lewis Pelly المقيم البريطانى فى الخليج العربى ، والذى أرسلته حكومة الهند لإجراء مباحثات سياسية مع فيصل . ويقول فيلبى إن زيارة بلى قد أدت إلى التوقيع على اتفاق عربى انجليزى لم يعثر على نصوصه فى سجلات الرياض(٣) . أما زيارة بلجريف السابقة للرياض وما يحتمل

---

(١) كتب بلجريف عن رحلته هذه مؤلفاً سبقت الإشارة إليه ، وهو بعنوان :
A Narrative of a year's journey through Central and Eastern Arabia, 2 vols., London, 1865.

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 216.

أن يكون قد تم خلالها من مباحثات سياسية مع فيصل ، فقد ذهبت سدى بسبب هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى الحرب السبعينية(١) .

وعلى كل حال ، فنى ديسمبر عام ١٨٦٥ قضى فيصل نحبه بعد أن مارس الحكم واحداً وثلاثين عاماً تخللتها فترة خمس سنوات قضاها أسيراً فى مصر .

الفتنة بين أبناء فيصل :

وأدت وفاة فيصل إلى التعجيل بعهد من الفتن والمنازعات كانت وبالا على الإمارة السعودية الثانية إذ انقسم أبناؤه على بعضهم وتنازعوا على الحكم وحين وفاة فيصل كان ابنه الأكبر عبد الله أميراً على الرياض ، وابنه الثانى سعود أميراً على الخرج والأفلاج ، وابنه الثالث محمد أميراً على المنطقة الشمالية من الإمارة ، فى حين كان ابنه الصغير عبدالرحمن فى الرياض إلى جانب أخيه عبد الله(٢) .

ولما كان فيصل قبل وفاته قد عين رسمياً ابنه الأكبر عبد الله ولياً للعهد ، فقد أخذ عبدالله على عاتقه بهذه الصفة تسيير دفة الحكم فى الإمارة بعد وفاة والده . ولكن أخاه الأصغر سعود لم يلبث أن نازعه العرش ، ولكى يكون بعيداً عن متناول يدى أخيه الأكبر ، لجأ سعود إلى إقليم عسير الجبلى الوعر . وحاول عبد الله إعادة أخيه سعود إلى الرياض دون جدوى .

على أن سعود سرعان ما أدرك أن لا أمل له فى إغراء أمير عسير على الوقوف إلى جانبه ومساندته فى المطالبة بالعرش ، فارتحل إلى نجران ، حيث لقى ترحيباً وحفاوة من العجمان النازلين هناك ، والذين اجتمعوا

(١) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 115.

(٢) فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ص ٣٣٧ .

حوله ينصرونه على أخيه ، كما انضمت إليه أعداد كبيرة من الدواسر وبنى مرة . ولما كان الأمير محمد قد وقف إلى جانب أخيه عبد الله ضد أخيه سعود(١) . فقد أرسل عبد الله أخاه محمداً إلى الجنوب على رأس جيش قوى جنده من حضر نجد وقبائلها . والتحم جيشا سعود وعبد الله فى معتلى إحدى قرى الدواسر ، وتكبد الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح ، إلا أن النصر كان حليف جيش عبد الله ، واضطر سعود إلى الهرب إلى بنى مرة ، ثم ارتحل من جديد أواخر عام ١٨٦٦ إلى عمان ، وزار فى العام التالى البحرين ، حيث ضمن مساعدة حكامها من آل خليفة .

وبعد أن قام بهجوم عقيم على قطر ، عاد سعود إلى البحرين ، ومن هناك راح يتبادل الرسائل مع العجمان بالأحساء ، ثم نزل فى عقير وزحف على الأحساء . وتقابل جيش سعود مع القوات الموالية لأخيه عبد الله فى قناة الوجاج ، وكان النصر حليف جيش سعود ، ولو أن الهفوف ظلت تقاوم الحصار المضروب عليها مقاومة شديدة طيلة أربعين يوماً . وفى أثناء ذلك كان عبد الله فى الرياض يحشد جيشاً بقيادة أخيه محمد لرفع الحصار عن الهفوف . وقبل أن يصل جيش الرياض إلى الهفوف ، اشتبك سعود معه فى معركة عند ماء جوده فى أول ديسمبر عام ١٨٧٠ ، وكانت معركة عنيفة انتصر فيها سعود وأسر أخاه محمداً وألقى به سجيناً فى قلعة القطيف . وكان من نتيجة هذه المعركة استسلام قبائل الأحساء لسعود ، الذى أصبح بذلك سيد الجزء الشرقى من شبه الجزيرة العربية(٢) .

ولاريب أن سيطرة سعود على الأحساء قد أقلقت عبد الله فى الرياض قلقاً شديداً ، لأن نجد كانت تعتمد اعتماداً كبيراً من الناحية الاقتصادية على اتصالها بساحل الخليج العربى عن طريق الأحساء . ومن ثم ، فإن انقطاع

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 124.

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٩٨ — ٩٩ وانظر كذلك :
Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 218-220.

الصلة بين نجد والأحساء لابد أن يؤدى إلى اختناق الإمارة السعودية . وهذا فضلا عن توقع هجوم سعود من الأحساء على نجد . وعلى ذلك ، فقد اضطر عبد الله إلى الهرب من الرياض قاصداً الالتجاء إلى آل الرشيد فى حائل(١) . وفى أثناء سيره إلى هناك أرسل وفداً إلى مدحت باشا والى بغداد طالباً المساعدة الملحة لمواجهة ثورة أخيه وعارضاً التبعية للدولة العثمانية ودفع الجزية لها(٢) . ولكن عبد الله سرعان ماغير رأيه وعاد إلى الرياض بهدف تثبيط همة سعود عن مهاجمة المدينة . ورغم ذلك فقد زحف سعود فى أبريل عام ١٨٧١ على الرياض ، فهرب عبد الله منها مرة أخرى إلى بلاد قحطان فى الجنوب . ودخل سعود الرياض دون مقاومة ، وبايعه زعماء المدن والقبائل ، فأصبح بذلك الحاكم الفعلى فى نجد بدلا من أخيه الهارب(٣) .

التدخل التركى:

ولما كان الوفد الذى أرسله عبد الله إلى بغداد طالباً مساعدة الأتراك ضد أخيه سعود قد جاء فى وقت كان مدحت باشا يفكر جدياً فى ضم الأحساء ونجد ، فقد انتهز والى بغداد هذه الفرصة ، خصوصاً بعد أن كان قد فرغ من إخضاع القبائل التى تسكن جنوب العراق ، فأصدر إعلاناً زعم فيه أن نجد خاضعة للسيادة العثمانية ، وأشار إلى عبد الله بن فيصل بصفته مفوضاً من قبل السلطان العثمانى أو « قائمقاماً » فى نجد ، وأعلن أن حملة عسكرية تركية سوف ترسل من بغداد لإقرار النظام فى نجد ومساندة قائمقامها عبد الله ضد أخيه المتمرد سعود(٤).

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 125.

(٢) Longrigg, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, p. 302.

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 220-221.

(٤) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 126.

وفى ٢٠ أبريل عام ١٨٧١ تحركت الحملة العثمانية من البصرة تحت قيادة الفريق نافذ باشا ، ونزلت فى مايو فى ميناء القطيف ، حيث أطلقت الأمير محمداً بن فيصل من سجنه ، وطردت الوالى المعين من قبل أخيه سعود(١) . ومن القطيف تقدمت قوات الحملة واستولت على جميع جهات الأحساء دون مقاومة ، ورفعت أخيراً الراية العثمانية على الهفوف قاعدة الأحساء .

وكان مدحت باشا قد أصـــدر فى نفس اليوم الذى تحركت فيه الحملة العثمانية من البصرة إعلاناً مطولا وجهه إلى سكان نجد ، وكشف فيه النقاب عن السياسة العثمانية إزاء هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية ، وخير سعود بين أن يظهر الندامة ويبدى التوبة أو يتعرض للعقوبة وإليك ماجاء بهذا الإعلان (٢):

« إن نجد من الممالك المقدسة الراجعة للدولة العثمانية . وإذا كانت الدولة قد تغافلت عنها حيناً من الزمان ، فقد كان ذلك لانشغالها عنها . ونتج عن ذلك استحكام الفوضى فى داخلها ، وأن الدولة تتدخل الآن لإصلاح مافسد .

« إن سعود الفيصل أغرى بعض الجهال وأغفلهم ، وخرج باغياً على أخيه المنصوب قائمقاماً على بقعة نجد من جانب الدولة العلية ، وجاء إلى أطراف الحسا والقطيف وجاس خلال الديار وأضر الأهالى الموجودين هناك ، فهو فى هذه الحال قد حصل على ذنبين كبيرين وجرمين خطيرين :

« فأما الذنب الأول فهو التجاوز على حقوق حكومة أخيه عبد الله المودوعة بعهدته من طرف السلطان . وأما الذنب الثانى فهو تشجيع

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 222.

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى . دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ ص ١٨٣ — ١٨٤.

الملة الإسلامية ، بحيث أن ذلك التشجيع يكون سبباً فى تفريق القوة الإسلامية .

« ولما كانت محافظة حقوق الحكومة المخولة لعهدة عبد الله لازمة ، وأن جميع البلاد والعباد هى وديعة الله تعالى تحت الظل السلطانى ، وأن إبقاء هذه الحالات لازم لذلك بتأسيس مأمورية محكمة الأساس ، ولهذا عينت الدولة فرق عسكرية كافية من بغداد تحت إدارة الفريق نافذ باشا . وهاهى قد خرجت إلى ساحل القطيف مع هذا المقدار من السفاين النارية .

« فالآن يلزم لكل منكم أن يعلم أن حكومة قطعة نجد بأطرافها وأكنافها لما كانت مخولة من طرف السلطان إلى عهدة عبد الله ، فإنها اليوم قد أبقيت بعهدته وتقررت ، وأن المومى اليه الآن هو قائمقام نجد وراجع إلى ولاية بغداد . وأما المقصد من تعيين العساكر السلطانية إنما هو محافظة حقوق الحكومة . وإذا أظهر سعود الندامة وأبدى التوبة من أفعاله وجاء إلى الفرقة العسكرية وطلب تحصيل عفو الحضرة السلطانية ورحمتها يقتضى أن يرسل إلى بغداد . وإذا أظهر المخالفة فإن الساعة تجرى بحقه مع التأسف تطبيقاً للآية الكريمة : « إنمـــا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » إلى آخر الآية الشريفة .

« وإن كافة الناس الموجودين فى الحسا والقطيف والواقفين على ساق الخدمة للفرقة العسكرية من الأهالى والعشائر والقبائل ، فإنهم مالم يقفوا بصدد العساكر ولا بوجه الحكومة ، فإنهم تحت راية الأمان وكل أرواحهم وممتلكاتهم وأعراضهم محفوظة . وإذا وجد أحد من الناس مع سعود ، فإن ذنوبهم فى رقابهم كما قال الله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وماربك بظلام للعبيد » » .

تجدد الصراع بين سعود وعبد الله :

وكان سعود قد خرج من الرياض على رأس جيش كبير من البدو والحضر لمطاردة عبد الله وحلفائه من قبيلة قحطان ، فهزمه عند واحة برّة ، مما اضطر عبد الله إلى الهرب مع أنصاره إلى الرويضة فى منطقة العارض ، ومن هناك توجه إلى الأحساء لينضم إلى الحملة التركية ، وبذا صار أسيراً فى أيدى الأتراك ، ولو أنهم عاملوه معاملة طيبة .

أما سعود فقد عاد بعد معركة برّة إلى الرياض ، غير أن أهلها الذين شجعهم وجود الأتراك على مقربة منهم ، والذين نقموا على سعود بسبب الأعباء المالية التى أرهقهم بها لمواجهة احتياجات حلفائه من البدو وبسبب الامتيازات الكثيرة التى منحها لأنصاره من العجمان ومطير والمناصير ، لم يلبثوا أن ثاروا عليه بمجرد أن صرف حلفاءه من البدو . ومن ثم ، فقد اضطر سعود إلى مغادرة الرياض متوجهاً إلى الدلم حاضرة إقليم الخرج ، بينما سيطر عمه عبد الله بن تركى على الرياض .

ولم يكن فى نية سعود أن يبقى خاملا فى الدلم ، بل قرر أن يعمل من أجل طرد الأتراك حلفاء أخيه من الأحساء . فغادر الدلم ووصل فى سبتمبر عام ١٨٧١ إلى القبائل الموالية له فى الأحساء . واستطاع بمعاونة بنى مرة والعجمان أن يقطع الطريق على الإمدادات التركية المتجهة صوب الأحساء وأن يغير على القرى المنعزلة ومزارع النخيل بتلك الواحة . ورد الأتراك على نشاط سعود المعادى بتقوية حامياتهم فى القطيف وساحل قطر ، ثم هاجموه وأوقعوا به الهزيمة فى معركة خويره . وكان أخوه عبد الله نفسه حاضراً فى هذه المعركة(١) .

وقبل نهاية عام ١٨٧١ أصدر مدحت باشا إعلاناً ذكر فيه أنه بسبب

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 222.

ويبدو أن الأتراك كانوا قد أدركوا أثناء ذلك أن حكم نجد حكماً مباشراً من جانبهم سوف يكلفهم الكثير من الجهد والأعباء ، خصوصاً أن الأحوال المناخية فى شرقى شبه جزيرة العرب كانت تجعل بقاء الحاميات العسكرية التركية فى هذه المنطقة أمراً متعذراً أو مستحيلا ، ولهذا جنح الأتراك إلى مهادنة سعود وفتح باب المفاوضات معه للتوصل إلى تسوية سياسية ، الأمر الذى رحب به الأمير السعودى وأرسل عام ١٨٧٢ أخاه الأصغر عبد الرحمن إلى بغداد ، حيث استبقى هناك كرهينة لدى واليها رؤوف باشا(١) الذى خلف مدحت باشا منذ أوائل عام ١٨٧٢ . وكان من العوامل التى جعلت سعود يرحب بالتفاوض مع العثمانيين ، ذلك الفشل الذى لاقاه فى ضمان الحماية اللازمة له من حكومة الهند البريطانية ، التى لم تجد ما يحول دون امتلاك العثمانيين للأحساء ، وخاصة بعد أن حصلت على تعهدات منهم بعدم التطلع إلى ما يلى الأحساء جنوباً(٢) .

على أن الأمير عبد الرحمن بن فيصل لم يلبث أن فر من بغداد ووصل عن طريق البحرين إلى الأحساء فى أكتوبر عام ١٨٧٤ ، حيث أشعل ثورة عامة ضد الحامية التركية فى الهفوف . وكاد عبدالرحمن ينجح بمساعدة القبائل الموالية لآل سعود من العجمان وبنى مرة وبنى هاجر فى طرد الأتراك من الأحساء ، لولا أن جاءت من العراق نجدة كبيرة بقيادة متصرف البصرة ناصر السعدون ، وتمكنت من احتلال الهفوف(٣) والقضاء على الثورة وتشتيت شمل الثوار ، فهرب بعضهم إلى البحرين ، بينما هرب عبد الرحمن إلى الرياض ، ليجد أخاه سعوداً مريضاً بقصره عقب غارة قام بها على المناطق المجاورة لحريملة . وفى ٢٦ يناير عام ١٨٧٥ قضى سعود نحبه(٤) .

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 127.

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى . دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ ص ١٩٦ .

(٣) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 127.

(٤) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 224.

الشكايات التى بلغت السلطان من أعيان نجد ، فقد صدرت الأوامر بعزل آل سعود من حكم هذه البلاد وإناطة حكمها إلى حاكم تركى . وأشار مدحت باشا فى هذا الإعلان نفسه إلى أن نافذ باشا قد عين «متصرفاً» على نجد(١) . وسواء كان عبد الله قد سمع عن هذا الإعلان أم لا ، فقد كانت الشكوك فى نوايا الأتراك قد أخذت تساوره . إذ لم تمض بضعة أيام على معركة خويره حتى وصلت إلى العقير إمدادات كبيرة لجيش الأحساء ، وأدرك عبد الله أن الغرض من حملة الأحساء لم يكن حمايته من أخيه سعود كما كان يتوقع ، بل إزالة الحكم السعودى وإدارة البلاد كأى إقليم عثمانى بصورة مباشرة(٢) . وهكذا وجد عبد الله نفسه واقعاً فى شرك يصعب عليه الخلاص منه . ورغم الحراسة المفروضة عليه ، نجح عبد الله فى الفرار من المعسكر العثمانى ، وواصل الليل بالنهار فى سيره سالكا دروباً وطرقاً غير مطروقة حتى وصل إلى الرياض نفسها ، فاستقبله أهلها مرحبين مهللين(٣) .

ومع ذلك ، لم يبق عبد الله بالرياض طويلا ؛ فبعد معركة خويره أخذ سعود يثير القبائل فى أقاليم نجد الجنوبية ، واستطاع أن يستميل إليه عدداً كبيراً من الدواسر والأفلاج ، لم يلبث أن سار بهم فى مارس عام ١٨٧٣ نحو الرياض ، وخرج أخوه عبد الله لمقابلته ، فكان النصر حليف سعود فى معركة الجزع الثانية ، وهرب عبد الله مرة أخرى إلى ناحية الكويت ليقضى فترة أخرى من النفى بين قبائل قحطان ، بينما دخل سعود الرياض وتقاطر عليه أعيانها وزعماء المناطق المجاورة ليجددوا له الطاعة والولاء(٤) .

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 126.

(٢) صلاح العقاد : الاستعمار فى الخليج الفارسى ص ١٧١ .

(٣) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٩٩ .

(٤) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 223.

استمرار الصراع بين إخوة سعود وأبنائه :

وبوفاة سعود عاد الانقسام مرة أخرى إلى البيت السعودى ، أولا بين إخوة سعود : عبد الله وعبد الرحمن ومحمد أبناء فيصل ، وثانياً : بين عبدالله وأبناء سعود ، وهو الانقسام الذى أضعف البيت السعودى وأدى إلى اضمحلاله وانهيار الإمارة السعودية الثانية فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر .

فعقب وفاة سعود استولى أخوه عبد الرحمن على الحكم فى الرياض ، فى الوقت الذى كان شقيقاه عبد الله ومحمد يقيمان فى جهات الكويت ، ولكن عبد الله سرعان ما أرسل أخاه محمداً للاستيلاء على إقليم الوشم ، ثم توجه محمد من هناك إلى ثرمدة ، فأسرع عبد الرحمن بالخروج من الرياض على رأس قوة من الأهلين والبدو وحاصر محمداً وحلفاءه فى ثرمدة ، ودار قتال بين الجماعتين خسر فيه الطرفان بعض الأرواح ، ولكن محمداً سارع بوضع نفسه تحت تصرف أخيه وتسليم أسلحته إليه ، فعاد عبد الرحمن إلى الرياض ليدخل فى نزاع مع أبناء سعود ، مما دفعه إلى ربط مصيره بمصير عبدالله ، فلحق به فى الطرف الشرقى من الصحراء تاركا الرياض تحت رحمة أبناء سعود .

وبصحبة عبد الرحمن زحف عبد الله على رأس قوة كبيرة من البدو إلى الرياض وهاجمها ، فانسحب أبناء سعود المطالبون بالعرش إلى اقليم الخرج ، وأبرم عبد الله مع أخيه عبد الرحمن اتفاقاً وديا ، تولى بموجبه عبد الله مقاليد الحكم فى الرياض ، بينما قنع عبدالرحمن بأن يكون مستشاراً لأخيه . غير أن هذا الاتفاق لم ينقذ الإمارة السعودية الثانية من مصيرها المحتوم . فقد أدى صراع آل سعود على السلطة إلى إضعاف شوكتهم ، مما أتاح الفرصة لآل الرشيد فى حائل لكى يبسطوا نفوذهم فى المناطق الواقعة إلى

الشمال من نجد ولا سيما القصيم ، الأمر الذى أدى بدوره إلى اشتداد العداء بين آل سعود وآل الرشيد منذ أوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر . وكان من عوامل استفحال خطر هذا العداء ما لجأت إليه الآستانة من مد آل الرشيد بالأموال والأسلحة للاطاحة بحكم آل سعود فى نجد(١) .

وفضلا عن ذلك ، فإن احتلال العثمانيين للأحساء كان من شأنه إضعاف نجد اقتصادياً كنتيجة لحرمانها من الاتصال بالخليج العربى ، مما جعل آل سعود فى هذه الحقبة يحاولون الاستعاضة عن فقدان الأحساء ببسط نفوذهم على مدن القصيم الغنية نسبياً خصوصاً عنيزة وبريدة ، والتى تتحكم فى طرق القوافل المارة عبر شبه الجزيرة العربية من الكويت إلى الحجاز(٢)، وهى محاولة كانت تصطدم مع سياسة محمد بن الرشيد الذى كان يعمل فى سبيل بسط نفوذه من حائل إلى القصيم جنوباً وإلى واحة الجوف ووادى السرحان شمالاً(٣) . زد على ذلك كله أن وجود أبناء سعود فى إقليم الخرج كان مصدر خطر دائم بالنسبة لعبد الله ، لأنهم ما فتئوا يحرضون القبائل ويهددون بإشعال الثورة ضد عمهم .

ولهذه الأسباب إذن لم يكن من المنتظر أن تستقيم الأمور لعبد الله فى الرياض . ومما زاد الطينة بلة أن عبدالله ما كاد يتولى زمام الأمور فى الرياض حتى قام يناصر آل عليان أمراء القصيم السابقين على أعدائهم آل مهنا الأمراء الحاكمين وقتذاك . ودون أدنى شك ، كان هذا جهلا من عبدالله ، لأنه فى وقت ضعفه ليس من الحكمة أن يتحزب لبيت مغلوب ، فيضعضع نفوذه فى القصيم(٤) . وعلى ذلك ، فكما كان منتظراً عندما

(١) أحمد على : ال سعود ص ١١٧ وانظر كذلك :
Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, p. 61.

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 116.

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 228 .

(٤) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٠١ .

حاول عبد الله أن « يظهر صولته فى القصيم ، فاستولى على عنيزة ، إلا أن بريدة قاومته مقاومة عنيفة ، واستنجد أهلها بمحمد بن الرشيد من حائل ، فجاءها هذا وفكها من نفوذ ابن سعود وحازها لنفسه »(١) .

وتلا ضياع القصيم أو بالأحرى استقلالها عن نجد فى ظل حماية محمد بن الرشيد ، أن حشد عبد الله عشائره فى العارض للزحف على المجمعة ، فطلب أهلها المساعدة من ابن الرشيد ، الذى بادر إلى نجدتهم بجيش مؤلف من بوادى شمر وحرب . وعندما وصل إلى بريدة ، انضم إليه أميرها حسن مهنا أبو الخيل ومعه جند من القصيم ، فلم يجد عبد الله مفراً من العودة إلى الرياض بمن معه من أهل السدير والوشم وبادية عتيبة . ودخل ابن الرشيد المجمعة ، وعين أحد سكان حائل حاكماً على المجمعة نيابة عنه ، ثم عاد إلى بلاده . وهكذا أضاف ابن الرشيد إقليماً آخر إلى إمارة جبل شمر .

على أن عبدالله لم يلبث أن أعاد الكرة على المجمعة محاولا إخضاع أهلها، فزحف عليها فى يناير عام ١٨٨٤ ، مما نجم عنه حدوث أول اصطدام مسلح فعلى بين عبدالله وبين ابن الرشيد فى سهل حمادة ، حيث هزم عبدالله هزيمة منكرة . وكان فى العام التالى أن هاجم أبناء سعود الرياض ، وألقوا القبض على عمهم عبد الله وسجنوه ، واستلموا على الفور زمام الحكم فى الرياض(٢) .

انهيار الإمارة السعودية الثانية :

وسواء كان عبد الله قد استنجد بمحمد بن الرشيد(٣) ، أو أن الأخير انتهز فرصة الانقلاب الذى دبره أبناء سعود ضد عمهم ليظهر صداقته

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٢٨ .

(٢) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 229-231.

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٢٨ .

لعبدالله وليبسط فى الوقت نفسه سلطانه على ما تبقى من الإمارة الوهابية(١)، فقد أسرع أمير حائل بالزحف على الرياض على رأس جيش كبير ، وانسحب أمامه أبناء سعود إلى إقليم الخرج ، فدخل ابن الرشيد العاصمة الوهابية وأطلق سراح عبدالله وأخذه معه إلى حائل . وقبل أن يعود إلى إمارته ، عين ابن الرشيد سالم السبهان حاكماً على الرياض . ومن الجدير بالذكر أن آل السبهان أخوال بيت الرشيد .

وفى غضون عام ١٨٨٦ أرسل سالم السبهان حملة إلى الخرج ، فقبض قائدها على ثلاثة من أبناء سعود ، وهم محمد وعبدالله وسعد وأعدمهم(٢) . ومنذ هذا الوقت اختفى نجم آل سعود من نجد ، وغدا محمد بن الرشيد سيد المنطقة ورجلها القوى دون منازع . ولا غرو فقد امتد نفوذه على سائر البلاد النجدية من وادى السرحان شمالا إلى وادى الدواسر جنوباً ومن تيماء وخيبر غرباً إلى قرب الخليج العربى شرقاً(٣) .

وأقام عبد الله فى حائل بضع سنوات حتى أعاده محمد بن الرشيد إلى الرياض ليقضى نحبه بها بعد قليل فى ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٩(٤)، وعقدت البيعة لأخيه عبد الرحمن ، الذى استمر يكافح ضد آل الرشيد والعثمانيين .

على أن عبد الرحمن لم يلبث أن حاول أن يستقل بإمارة نجد عن آل الرشيد ، فتحالف مع زامل آل سليم أمير عنيزة وحسن بن مهنا أمير بريدة على أن « يقوموا معاً بحركة يقضون بها على ابن الرشيد »(٥) ،

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 231.

(٢) كان عبد الرحمن وهو ابن آخر من أبناء سعود قد لقى حتفه من قبل فى إحدى المعارك الحربية . أما عبد العزيز خامس أولئك الإخوة ، فقد كان يزور حائل وقتئذ ، فزج به ابن الرشيد فى السجن مؤقتا .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٤٤ .

(٤) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 232.

(٥) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٣٩ .

إلا أن الأخير سارع بالعمل من أجل مواجهة هذا التحالف الجديد. فزحف على الرياض وضرب الحصار عليها، ثم أخذ يغير على طرق تموينها ويقطع أشجار النخيل ويدمر قنوات الري ويسمم الآبار ويتلف المزارع والحدائق التي تحيط بها(١). ويقال إن رجال ابن الرشيد قد قطعوا ما لا يقل عن ثمانية آلاف شجرة نخيل. وبعد أربعين يوماً قضاها ابن الرشيد في مثل هذه العمليات العقيمة، اقترح على عبدالرحمن فتح باب المفاوضات لتسوية جميع خلافاتهما سلمياً، فوافق عبد الرحمن على ذلك، وأرسل وفداً برئاسة أخيه محمد، ومن أعضائه ابنه عبد العزيز البالغ من العمر وقتئذ عشر سنوات. وسويت المسائل المتنازع عليها بسرعة ويسر، على أساس أن يرفع ابن الرشيد الحصار عن الرياض ويعود إلى بلاده بسلام، بينما يظل عبد الرحمن متربعاً على عرش أجداده. ومن المستبعد أن يكون أي من الجانبين قد اعتبر هذه التسوية نهائية أو دائمة (٢).

ولما كان ابن الرشيد قد خاب أمله في الرياض، فقد قرر أن يصفي حسابه مع أهل القصيم ولاسيما أميري عنيزة وبريدة، فحشد جيشاً كبيراً من قبائل شمر وظافر وحرب وحتى من عشائر المنتفك في العراق، وزحف بهذا الجيش على القصيم. وفي ٢١ يناير عام ١٨٩١ وقعت معركة المليدة (غربي القصيم) التي انتصر فيها ابن الرشيد انتصاراً حاسماً على غريميه أميري عنيزة وبريدة وحليفي عبد الرحمن، وأصبح إقليم القصيم تحت رحمته.

ومع أن عبد الرحمن كان وقتئذ في طريقه إلى ساحة القتال، إلا أنه تأخر كثيراً عن معركة المليدة الفاصلة التي بلغته أخبارها وهو لايزال في سهل حمادة، فعاد مسرعاً إلى الرياض، وأخذ يعد العدة للهرب مع أسرته وجميع أفراد البيت السعودي، حتى لايقع أحد منهم حياً في قبضة عدوهم

(١) Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, p. 64.

(٢) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 233-4.

ابن الرشيد. وتحت جنح الظلام غادر آل سعود — باستثناء الأمير محمد — الرياض متجهين جنوباً، وبعد أن وصلوا إلى أرض العجمان، أرسل عبد الرحمن من هناك نساءه وأطفاله إلى البحرين، في حين واصل هو السير جنوباً إلى واحة الحريق(١).

أما ابن الرشيد فلم يلبث أن احتل الرياض، وترك محمد بن فيصل أميراً عليها من قبله، إلا أنه لم ينقض عام واحد حتى عين مكانه رجلا من حائل يدعى عجلان. وعلى هذا النحو سيطر محمد بن الرشيد على نجد، وأصبحت حائل العاصمة الوحيدة لوسط شبه الجزيرة العربية من واحة الجوف إلى الصحراء الجنوبية الكبرى(٢).

ويبدو أن العثمانيين قد بدأوا ينظرون بعين القلق إلى امتداد سطوة حليفهم ابن الرشيد وباتوا يخشون احتمال تهديده لمراكزهم في المناطق التي يسيطرون عليها في سواحل الخليج، خصوصاً بعد أن نمى إليهم انه بدأ يتكلم عن رغبته في الإطاحة بوصاية تركيا عليها. ولذا حاول العثمانيون التوصل إلى اتفاق مع عبد الرحمن آل سعود، بهدف تمكينه من استرجاع الرياض من ناحية وتحقيق توازن القوى الذي اختل في شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى(٣). فكلف حاكم الأحساء أحد الأطباء اللبنانيين بالجيش العثماني، وهو الدكتور زاخور عازار، ليفاوض عبد الرحمن ويعرض عليه شروط الدولة.

ويذكر الريحاني أن الدكتور زاخور اجتمع في يناير عام ١٨٩١ قرب المبرز بعبد الرحمن آل سعود وعرض عليه ولاية الرياض يحكمها من قبل الدولة العثمانية، على شريطة أن يعترف بسيادتها عليه وأن يدفع لها جزية

(١) Benoist-Méchin, J. : op. cit., pp. 64-5.

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 116.

(٣) Benoist-Méchin, J. : op. cit., p. 65.

سنوية مقدارها ألف ريال أو أقل(١). ويضيف جاك بنوا مشين إلى هذه الشروط شرطاً آخر ، هو السماح بإقامة حامية عثمانية فى الرياض(٢) . ولكن عبد الرحمن رفض هذه الشروط لعدم ثقته فى العثمانيين ، إذ كانت ذاكرته لاتزال تعى ما سمعه عن حادث شنق الإمام عبد الله بن سعود فى الميدان المواجه لمسجد آيا صوفيا بالآستانة .

وسرعان ما استأنف عبد الرحمن سيره جنوباً حتى وصل إلى صحراء الربع الخالى . وبينما كان يهيم على وجهه بتلك الصحراء، كان محمد بن الرشيد الذى اعتقد بأنه قد أصبح من الآن فصاعداً سيد وسط شبه الجزيرة العربية، قد خرج عن طاعة الآستانة . وأيقن وزراء عبد الحميد الثانى أنهم قد أخطأوا عندما سمحوا بتدمير الإمارة السعودية الثانية وتشريد آل سعود ، الذين كان بوسعهم وحدهم كبح جماح ابن الرشيد ، مما جعلهم يقررون تغيير سياستهم ومساعدة عبد الرحمن فى استرداد ملكه حتى يستطيع منازلة عدوه . وعلى ذلك ، فبينما كان عبد الرحمن لايزال يضرب بصحراء الربع الخالى ، وصلت إليه دعوة من أمير الكويت الشيخ محمد آل الصباح للإقامة هو وعائلته فى الكويت ، فهاجر إليها عام ١٨٩٣ وهو لا يعلم أن الحكومة العثمانية كانت من وراء إرسال هذه الدعوة وأنها تكفلت بنفقات إقامته وعائلته فى الكويت ، يحدوها الأمل فى إمكان استخدامه لتحقيق سياستها فى قلب شبه الجزيرة العربية(٣) .

بداية تأسيس الإمارة السعودية الثالثة :

وتحدد هجرة آل سعود إلى الكويت بداية الصداقة التقليدية بين البيت

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٠٦ .
(٢) Benoist-Méchin, J. : op. cit., p. 65.
(٣) Benoist-Méchin, J. : op. cit., p. 69.

السعودى وآل الصباح وتبنى هؤلاء للقضية السعودية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فبتشجيع من آل الصباح أخذ عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود يتطلع إلى تنفيذ فكرة استرداد ملك آبائه ، تلك الفكرة التى كانت تختمر فى ذهنه منذ أن التجأ مع والده وأفراد أسرته إلى الكويت حتى أصبحت شغله الشاغل .

وفى خريف عام ١٩٠١ خرج عبد العزيز من الكويت على رأس سرية تتكون من أربعين رجلا من قومه وعشيرته الأقربين ، وصار يجند أينما ذهب قوات من البدو ويغير على القبائل المعادية حتى حدود الأحساء ومشارف السدير . وفى ديسمبر من العام نفسه وصل عبد العزيز إلى مياه حَرْض ، حيث استقر هناك طيلة شهر رمضان . وما كاد يفرغ من أيام عيد الفطر الثلاثة حتى شمر عن ساعده للمغامرة الكبرى التى بلغت أوجها بعد خمسة أيام ، أى فى ١٥ يناير عام ١٩٠٢ ، عندما هاجم حامية آل الرشيد فى الرياض واحتل المدينة وقتل عجلان الأمير المعين من قبل ابن الرشيد(١) .

واستدعى عبد العزيز أباه عبد الرحمن وبقية أفراد البيت السعودى من الكويت إلى الرياض ، واحتفظ عبد الرحمن بلقب الإمام رأس الأسرة المالكة ، فى حين ظل ابنه عبد العزيز رأس الحكومة الفعال وقائد جيشها . وقد استمر الوضع كذلك حتى قضى عبد الرحمن نحبه فى عام ١٩٢٨ .

وعلى كل حال ، فعقب فتح الرياض صار عبد العزيز يبذل جهداً كبيراً لاستعادة مركز أسرته فى نجد ، ولبناء الإمارة السعودية الثالثة ، فخرج بنفسه عام ١٩٠٢ لإدخال الأقاليم النجدية الجنوبية تحت حكمه ، فزار الخرج والأفلاج والحوطة والحريق الواحدة تلو الأخرى ، وتقبل فروض الولاء

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 238.

من مشايخ القبائل بها . وبذلك انقسمت نجد إلى قسمين : قسم جنوبى الرياض أصبح تابعاً لآل سعود ، وقسم شمالى الرياض إلى حائل ظل خاضعاً لحكم ابن الرشيد . غير أن عبد العزيز استطاع عام ١٩٠٣ أن يحتل بلدان الوشم وبلداناً أخرى من منطقة السدير كالغاط والروضة وجلاجل ، وولى على هذه الجهات الشمالية أميراً من قبله (١).

ولم يلبث أن خرج عبد العزيز إلى القصيم ، فدخل فى أواخر مارس عام ١٩٠٤ مدينة عنيزة ، ثم زحف على بريدة ، وأرغم حاميتها على الاستسلام فى أوائل يونيه من العام نفسه . وكان دخول السعوديين عنيزة قد أزعج كلا من الآستانة وحائل . فأمد الاتراك عبد العزيز بن متعب وارث إمارة حائل(٢) بمساعدة عسكرية قوامها ثمانى كتائب من الجنود النظاميين ، جاء جزء منها من المدينة المنورة بقيادة صدقى باشا ، وجاء الجزء الآخر من بغداد بقيادة فيضى باشا . وعلى ذلك، فلم تكد تمضى بضعة أسابيع على دخول السعوديين بريدة حتى أخذ ابن الرشيد يتحرك . فبعد أن زوده الأتراك بالسلاح والمال والذخائر ، استطاع أن يحشد قوات كبيرة من قبائل حرب وعتيبة وقبيلته شمر ، وسار إلى القصيم على رأس هذه القوات والمجندين المحليين والكتائب التركية . وفى خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر دارت معركة البكيرية التى انتهت بنصر ساحق لعبد العزيز بن سعود .
ويقول فيلبى : « من الصعب أن نصدق كيف أن قوة تركية كاملة تتألف من ثمانى كتائب قد دحرت فى المعركة ، ولكن ينبغى أن نتذكر أن الأتراك كانوا يقاتلون فى ظروف غير مألوفة وغير ملائمة لهم تماماً ، فى منطقة صحراوية جدباء ، وفى حرارة الصيف »(٣).

---

(١) أحمد على : آل سعود ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) كان محمد بن الرشيد قد توفى فى ديسمبر عام ١٨٩٧ وخلفه ابن أخيه عبد العزيز ابن متعب .

(٣) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 244-7.

ومهما يكن من أمر ، فعلى أثر معركة البكيرية تراجع ابن الرشيد إلى الكهفه، وهى قرية تقع على حدود إمارة جبل شمر ، وأرسل من هناك إلى بغداد يبلغها بالكارثة ويطالب المزيد من المساعدات . وقد تصادف فى هذا الوقت أن وردت أنباء عن ثورة خطيرة ضد الحكم التركى فى اليمن بقيادة الإمام يحى بن حميد الدين ، فاضطرت الحكومة العثمانية أن تحد من نطاق عملياتها العسكرية فى أواسط شبه الجزيرة العربية من أجل اعادة الوضع فى اليمن إلى ما كان عليه . ومن ثم ، صدرت الاوامر إلى أحمد فيضى باشا بالتحرك إلى اليمن لقيادة القوات العثمانية هناك وكذلك الإمدادات المرسلة إليها ، وبذلك أصبحت قيادة الجيش العثمانى فى أواسط شبه الجزيرة بيد صدقى باشا الذى صدرت إليه على ما يبدو تعليمات بالتفاوض مع ابن سعود للتوصل إلى تسوية وإنقاذ القوات التركية من ورطتها بالصحراء(١) .

وفى أثناء ذلك كانت السلطات التركية فى العراق قد أرسلت عن طريق الشيخ مبارك أمير الكويت رسالة إلى الامام عبد الرحمن فى الرياض ، تقترح عليه فيها الدخول دون امهال فى مفاوضات سياسية . ووافق الإمام على هذا الاقتراح ، وسافر إلى الكويت ، ومنها والشيخ مبارك إلى الزبير . فاجتمعا هناك بوالى البصرة لمناقشة أمور نجد والقصيم . واقترح فخرى باشا والى البصرة جعل القصيم بمثابة « دولة حيادية » ، على أن تقيم بها قوة عسكرية تركية لحمايتها حتى يتم التوصل إلى تسوية نهائية لجميع المسائل المتنازع عليها بين ابن سعود وابن الرشيد . ويقول الريحانى إن الإمام عبد الرحمن لم يوافق على هذا الاقتراح ، إلا أنه قبل إكراماً للشيخ مبارك أن يعرضه على أهل نجد . ولكن أهل نجد لم يقبلوا البتة أن يكون القصيم على الحياد ، ولا أن يكون فيه حامية للدولة(٢) .

---

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 248.

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٤٩ .

وكان عبد الرحمن حين رجع إلى الرياض قد علم أن ابنه فى طريق عودته من القصيم ، فذهب لاستقباله فى الحسى. وبعد أن بحث الوالد والابن مفاوضات الزبير ، قررا العودة فى الحال إلى القصيم . والواقع أن عبدالرحمن لم يذهب إلى أبعد من شقرا ، حيث بقى هناك لاعادة تنظيم الإدارة وتجنيد الجند لحين الحاجة إليهم ، بينما سار ابنه إلى عنيزة لمقابلة صدقى باشا وفيضى باشا ، اللذين كانا لم يبرحا المدينة بعد . وأعاد القائدان التركيان على مسمعه اقتراح نخرى باشا بشأن إيجاد منطقة حيادية وتمركز القوات التركية فى بريدة وعنيزة ، إلا أن عبد العزيز رفض هذا الاقتراح ، بالرغم من موافقة صالح بن مهنا . وكان هذا قد وجد نفسه يلعب دور الزعيم للقصيم تحت الحماية التركية ومستقلا عن كل من حائل والرياض (١) .

ولم يلبث أن اشتبكت قوات ابن سعود مع ابن الرشيد وجموعه فى مكان يعرف بروضة مهنا بالقرب من بلدة الزلفى ليلة ١٤ أبريل عام ١٩٠٦ ، وأسفر الاشتباك عن قتل عبد العزيز بن متعب آل الرشيد وتفرق جموعه. وبينما كان صدقى باشا يفكر فى إنجاز ما يطلبه آل مهنا من احتلال بريدة ثم التقدم إلى غيرها من بلدان القصيم ، قامت الدولة العثمانية باستدعائه وتعيين قائد آخر مكانه ، هو سامى باشا الفاروقى .

واجتمع سامى باشا بعبد العزيز فى بلدة البكيرية بالقصيم ، وعرض عليه أن تكون منطقة القصيم تابعة للدولة العثمانية ، فلم يوافق عبد العزيز على ذلك . ويبدو أن كل ما أسفرت عنه المفاوضات بين الطرفين هو الاتفاق على ضرورة جلاء القوات التركية إلى بغداد والمدينة المنورة بضمان من ابن سعود ضد أى اعتداء تقوم به القبائل على الطريق . وعلى سبيل الاحتياط من غدر الأتراك ، اشترط ابن سعود أن تعبر قوات بغداد الحدود العراقية قبل أن يسمح لقوة المدينة المنورة بمغادرة القصيم إلى الحجاز (٢) .

(١) Philby, H. St. J. : op. cit., pp. 248-9.

(٢) Philby, H. St. J. : op. cit., p. 249.

وقد نفذ هذا الاتفاق فى حينه دون أية عقبات ، وبذلك غادرت القوات التركية أواسط شبه الجزيرة العربية . وتم لعبدالعزيز النفوذ على القصيم (١).

ومن الجدير بالذكر أن السلطان عبد الحميد الثانى قد أرسل فى غضون عام ١٩٠٦ إلى عبد العزيز بن سعود يشكره « على معاملته عساكر الدولة تلك المعاملة الشريفة ، ويسأله أن يرسل أحد رجاله لمقابلته ، فأرسل صالح العذل ومعه اثنان آخران إلى الآستانة ، فنزلوا ضيوفاً على الحضرة الشاهانية ، ومنحوا الألقاب والنياشين ، وسمعوا من الوزراء كلاماً سياسياً لم يجيبوا عليه بشىء ولا أثمر بعدئذ شيئاً للدولة » (٢) .

والواقع أنه منذ عام ١٩٠٦ فصاعداً ، كان عبد العزيز آل سعود هو القوة المسيطرة فى وسط شبه الجزيرة العربية ، ونجح عام ١٩١٣ فى الاستيلاء على الأحساء وطرد الأتراك منها . وبذلك وصلت الإمارة السعودية إلى شواطىء الخليج العربى قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان من العوامل التى ساعدت عبد العزيز آل سعود خلال هذه الفترة على التخلص من أعدائه وتوسيع رقعة الإمارة السعودية ما يلى :

أولا — انشغال الأتراك بالثورة التى أعلنها الإمام يحيى بن حميد الدين باليمن عام ١٩٠٤ ، وهى الثورة التى أرغمتهم على سحب فيضى باشا وأكثر قواته فى القصيم وإرسالها إلى اليمن .

ثانياً — عدم استقرار أحوال إمارة حائل نتيجة للنزاع على الإمارة بين آل الرشيد عقب مقتل عبد العزيز بن متعب عام ١٩٠٦ . ويقول فؤاد حمزة : « إن تاريخ عائلة الرشيد بعد قتل عبد العزيز بن متعب حتى سقوط تلك العائلة نهائياً على يد ابن سعود بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، عبارة

(١) أحمد على : آل سعود ص ١٣٠ .

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٦٣ .

عن مأساة دموية مثلت أدوارها فى حائل ، فقد تولى الإمارة خلال هذه المدة القصيرة بضعة عشر أميراً أو نائباً للأمير »(١) .

ثالثاً — انشغال تركيا بالصراع العنيف بين الأتراك الأحرار (حزب الاتحاد والترقى) وبين السلطان عبد الحميد الثانى ، ذلك الصراع الذى انتهى بعزل عبد الحميد نفسه عام ١٩٠٩ .

رابعاً — معارضه انجلترا للتوسع العثمانى فى الخليج العربى ، خصوصاً حين منحت تركيا لألمانيا حق بناء خط حديد بغداد .

خامساً — انشغال الدولة العثمانيـة بالحرب الإيطالية الطرابلسية (١٩١١ — ١٩١٢) ثم بالحرب البلقانية (١٩١٢ — ١٩١٣) .

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٤٦ .

الفصل السادس

محاولات التوسع العثمانى فى الخليج العربى

كان سلطان الأتراك العثمانيين على الخليج العربى — إبان العصر العثمانى الأول — ضعيفاً للغاية ، فلم يستطيعوا حتى بعد استيلائهم على بغداد عام ١٥٣٤ ثم على البصرة عام ١٥٤١ أن ينشئوا لهم قاعدة بحرية يبسطون منها نفوذهم على مياه الخليج . فالبصرة بمستنقعاتها وخلجانها على شط العرب كانت لا تصلح لهذا الغرض ، كما أن الأتراك فيها كانوا يواجهون مقاومة من جانب العصبيات البدوية ومن جانب الإيرانيين أيضاً(١).

ومع أن الأتراك العثمانيين غزوا — أوائل العقد التاسع من القرن السادس عشر — مقاطعة الأحساء واحتلوها ، إلا أن الحكم العثمانى فى هذه المقاطعة لم يلبث أن انهار عام ١٦٧٠ بفضل نضال قبيلة آل حميد من بنى خالد . ومن الجدير بالذكر أن الحكم العثمانى فى الأحساء خلال هذه الفترة كان اسمياً ؛ فلم تحاول الدولة العثمانية أن تجبى الضرائب من أهل الأحساء ، كما أنها — كما يقول لونجريج — لم تسند باشواتها الأربع الذين تداولوا حكم الأحساء واحداً بعد الآخر (فاتح باشا ، ثم على باشا ، فمحمد باشا وأخيراً عمر باشا) بأية قوة مادية أو عسكرية(٢).

ولا شك أن انهيار السيطرة العثمانية من الأحساء أمام المقاومة المحلية من جهة ، ثم ضعف الدولة العثمانية وانشغالها بحروبها فى القارة الأوروبية من جهة أخرى ، كانا من العوامل التى ساعدت حكومة الهند البريطانية

(١) أحمد عزت عبد الكريم : « العلاقات بين الشرق العربى وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر » (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٢٧) .

(٢) Longrigg, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, p. 38.

على التدخل السياسى فى شئون الخليج ، ذلك التدخل الذى بدأ فى العقد السابع من القرن الثامن عشر وصادف نجاحاً ملحوظاً لعدم وجود أية سلطة قوية موحدة على شواطىء الخليج .

وفى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر انتشر النفوذ البريطانى فى الخليج عن طريق محاربة القرصنة وتجارة الرقيق(١). ومن ثم ، فعندما بدأت الدولة العثمانية تحاول بسط نفوذها فى الخليج أواخر الستينات من القرن التاسع عشر ، وجدت أن النفوذ البريطانى قد سبقها إلى شواطىء الخليج ، وصار يقاوم محاولاتها للسيطرة على هــذه الشواطىء ، مستعيناً بمعاهدات تحريم القرصنة وتجارة الرقيق التى عقدها مع مشايخ الخليج تارة وبقوته البحرية فى الخليج تارة أخرى .

اهتمام الأتراك بالتوسع فى الخليج العربى :

والواقع أن نفوذ ولاة بغداد فى الركن الشمالى الغربى من الخليج العربى لم يكن يجاوز حتى أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر إمارة الكويت التى كانت تربطها بالدولة العثمانية مجرد تبعية اسمية ، تتمثل فى اعتراف شيخ الكويت بشىء من الولاء للوالى العثمانى فى بغداد ، وذلك حرصاً على مركزه ودفعاً للاعتداءات العثمانية على بلاده .

وكان مما يغل أيدى الأتراك عن بسط نفوذهم على شواطىء الخليج جنوب الكويت أن حكومة بومباى كانت تعتبر الشواطىء الجنوبية للخليج بمثابة منطقة نفوذ لها ، فلم تكن تقابل بالارتياح تدخل الأتراك فى شئونها أو إرسال سفنهم الحربية إلى مياهها . فعندما اقترحت الآستانة عام ١٨٤٧ إرسال بعض السفن الحربية التركية إلى الخليج لمشاركة بريطانيا فى أعمال التفتيش على المراكب التى يشتبه فى أنها تحمل رقيقاً ، عارضت حكومة

(١) Wilson, Sir A.T. : The Persian Gulf, pp. 192-230.

بومباى بشدة هذا الاقتراح ، وأعرب هنل Hennel المقيم البريطانى فى الخليج عن مخاوف، من أن تنتهز الدولة العثمانية فرصة وجود أسطولها فى مياه الخليج فتعمل على بسط نفوذها على شواطئه .

وأكثر من ذلك ، فإن حكومة الهند البريطانية ــ جرياً وراء إبعاد النفوذ العثمانى عن الخليج العربى ــ رفضت عام ١٨٥٩ الاحتجاج التركى الذى وجه إلى بومباى بمناسبة ضرب بعض قطع الأسطول البريطانى لميناء الدمام على ساحل الأحساء ، وهو الميناء الذى كان يسيطر عليه وقتئذ الإمام فيصل بن تركى . وكان محمد بن عبد الله آل خليفة حاكم البحرين قد التجأ بعد وفاة أبيه إلى ساحل الأحساء وأقام فى الدمام ، ولم يلبث أن أعلن نفسه تابعاً لحكومة فيصل فى نجد . وفى عام ١٨٥٩ حاول محمد بن خليفة إنزال جند من أتباعه على ساحل البحرين بعد أن ضرب مدينة المنامة ، فأسرع المقيم البريطانى بإرسال بعض السفن الحربية البريطانية إلى ساحل الأحساء ، وقامت هذه السفن بضرب الدمام بالمدافع من البحر . ومما يذكر أن سلطات بومباى قد بنت رفضها للاحتجاج التركى على أساس أن الأمير السعودى لايخضع على الإطلاق للسيادة التركية ، وأن حكومة الهند البريطانية تتعامل معه مباشرة(١).

ويبدو أن الدولة العثمانية لم تفكر جدياً ــ إبان العصر العثمانى الثانى ــ فى بسط نفوذها على سواحل الخليج العربى وشرقى شبه جزيرة العرب قبل عام ١٨٦٩ . ففى هذا العام برز عاملان جديدان كان لهما أثرهما المباشر على سياسة الدولة العثمانية فى منطقة الخليج ، وهما :

أولا ــ فتح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩ . الأمر الذى كان من شأنه تمكين الأسطول العثمانى من الخروج من البحر المتوسط إلى

(١) صلاح العقاد : الاستعمار فى الخليج الفارسى ص ١٦٧ -- ١٦٩ .

البحر الأحمر والخليج العربي ، بالإضافة إلى إيجاد خط ملاحي مباشر بين الآستانة والبصرة .

ثانياً — تعيين مدحت باشا والياً على بغداد عام ١٨٦٩ ، حيث ظل متولياً ولاية بغداد حتى أوائل عام ١٨٧٢ . ومن المعروف أن مدحت باشا كان من أبرز زعماء حركة تركيا الفتاة التي سبقت الإشارة إليها ، وأنه كان يحبذ بسط نفوذ الدولة العثمانية على المناطق الآسيوية التابعة لها اسمياً حتى تعوض بذلك الخسائر الإقليمية التي توالت عليها في أوروبا . وفضلا عن ذلك ، فإن مدحت باشا كان يرى أن انتعاش الدولة الداخلي يتوقف إلى حد كبير على اتباعها سياسة توسعية في الخارج ، كما كان يعتقد أن اعتناق أغلبية سكان الخليج للمذهب السني يؤهلهم ليكونوا رعايا مطيعين للخليفة العثماني . هذا إلى جانب ما كان يشعر به من ضرورة انتهاز فرصة الانقسام الذي بدأ يدب في صفوف آل سعود في نجد عقب وفاة فيصل ابن تركي للقضاء على قوتهم نهائياً(١)

ولهذين العاملين إذن ، بدأ الأتراك العثمانيون يهتمون جدياً ببسط نفوذهم على سواحل الخليج العربي وشرقي شبه الجزيرة العربية بعد أن أهملوها ردحاً طويلا من الزمن .

التوسع العثماني في الأحساء :

ومن المحتمل أن مدحت باشا منذ أن تولى ولاية بغداد قد أخذ يخطط لبسط النفوذ العثماني على الكويت وجزر البحرين وشبه جزيرة قطر ، علاوة على الأحساء ونجد . ولم يجد مدحت في الكويت أية صعوبة ، لأن آل الصباح كانوا يميلون منذ عام ١٧٩٠ إلى الاعتراف بالسيادة العثمانية

(١) Longrigg, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, p. 301.

بشريطة ألا يترتب على هذا الاعتراف دفع الجزية للسلطان أو قبول إدارة تركية خالصة . وفضلا عن ذلك ، فإن الدولة العثمانية كانت قد لجأت منذ عام ١٨٤٥ إلى دفع مرتب سنوي لشيخ الكويت في نظير مشاركته في الدفاع عن ميناء البصرة بحرياً . ومن ثم ، ففي أبريل عام ١٨٧٠ استصدر مدحت فرماناً سلطانياً يقضي بإعلان الكويت سنجقاً تابعاً لمتصرفية الأحساء ، على أن يحمل شيخ الكويت لقب القائمقام ويستقل بتنظيم شئونه الداخلية وألا يدفع أية رسوم للباب العالي(١). وقد قبل عبد الله بن صباح آل الصباح شيخ الكويت (١٨٦٦ — ١٨٩٢) لقب القائمقام الممنوح له من الدولة عام ١٨٧١(٢) .

وكان مدحت باشا قد تلقى — أواخر عام ١٨٧٠ — طلب عبد الله بن فيصل بمساعدة الأتراك له ضد أخيه سعود وإعادته إلى الحكم في الرياض مقابل قبوله التبعية للدولة العثمانية ودفع الجزية لها . وما كاد مدحت يتلقى هذا العرض حتى قرر على الفور قبوله والعمل لضم الإمارة السعودية إلى الدولة العثمانية بحجة القضاء على الاضطرابات وإقرار النظام والأمن في أقاليم السلطان البعيدة(٣). وراح مدحت يعد بسرعة حملة لإرسالها إلى الأحساء بقيادة الفريق نافذ باشا . وفي ٢٠ أبريل عام ١٨٧١ تحركت الحملة من البصرة ، وكانت تتألف من خمسة آلاف جندي نظامي . واشترك في الحملة شيخ الكويت عبد الله آل الصباح ببعض قواته وبما يزيد على ثمانين سفينة . وفي مايو نزلت الحملة في رأس التنورة ومنها إلى القطيف التي احتلتها بسهولة . وتقدمت قوات الحملة من القطيف ، فاستولت على جميع الأحساء دون

(١) صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج الفارسي ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 136.

(٣) Longrigg, S.H. : op. cit., p. 302.

مقاومة ورفعت الراية العثمانية على الهفوف قاعدة الأحساء ، وقام نافذ باشا بتعيين الحكام على مقاطعات الأحساء وقراها .

وهكذا عاد الأتراك إلى احتلال الأحساء بعد انقضاء قرنين على خروجهم منها . وفى أواخر عام ١٨٧١ غادر مدحت باشا بغداد قاصداً الأحساء للقيام بجولة تفتيشية فيها . وانتهز مدحت فرصة وجوده هناك ، فاستبدل بالمرضى من حامية الأحساء رجالا أصحاء من بين الجند الذين اصطحبهم معه من العراق ، وأعلن أن الأحساء من ممتلكات الدولة العثمانية ، وعين نافذ باشا متصرفاً على الأحساء والمقاطعات التابعة لها باسم متصرفية أو لواء نجد(١). وقسم مدحت الأحساء إلى ثلاثة أقضية ، هى الهفوف والقطيف وقطر ، وجعل من الهفوف مقراً للحاكم العثمانى أو « الباشا المتصرف » . وكان لهذا الباشا قائمقامان فى كل من قطر والقطيف . وعلاوة على ذلك ، فقد وضع مدحت حاميات عثمانية فى كل من الهفوف والقطيف والعقير والبدعة .

واستمرت ترتيبات مدحت باشا فى الأحساء قائمة حتى عام ١٨٧٤ ، حين أدركت الدولة العثمانية أن استمرار الإدارة التركية المباشرة فى الأحساء سوف يكلفها نفقات باهظة ، فعهدت إلى ناصر باشا السعدون متصرف البصرة وزعيم قبائل المنتفك بإدخال نظام للحكم قليل التكاليف فى الأحساء ، ولذا زار ناصر المنطقة وسحب معظم أفراد الحاميات العثمانية وأحل محلهم قوات أخرى من الأكراد والقبائل العربية المحلية ، وعين أحد شيوخ بنى خالد متصرفاً على الأحساء . ولم تمض بضعة أسابيع حتى تعرض الحكم العثمانى فى الأحساء لهزة عنيفة ، إذ قدم الأمير عبد الرحمن

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ٣٠ وانظر كذلك :
Longrigg, S.H. : op. cit., p. 303.

ابن فيصل آل سعود من بغداد إلى الأحساء فى أكتوبر ١٨٧٤ وأشعل ثورة عامة ضد الحامية التركية فى الهفوف . غير أن ناصر باشا أسرع بالزحف صوب الأحساء ونجح فى إنقاذ حامية الهفوف المحاصرة والقضاء على ثورة عبد الرحمن ، ثم عاد إلى البصرة تاركاً ابنه ليحكم الأحساء(١).

محاولات التوسع العثمانى فى البحرين :

وكانت حكومة الهند البريطانية ترقب عن كثب نشاط الأتراك فى الأحساء منذ أن نزلت حملة نافذ باشا فى رأس التنورة حتى استيلائها على الهفوف . ومع أن حكومة الهند قد سلمت للأتراك باحتلال الأحساء وإبقاء حاميات عسكرية فيها ، إلا أنها عارضت بشدة المحاولات العثمانية الرامية إلى السيطرة على جزر البحرين أو على المناطق التى تليها جنوباً(٢).

وكان مدحت باشا — عقب نجاح حملة الأحساء — قد أرسل عارف بك قائد بحرية البصرة إلى البحرين للتظاهر بإقامة بعض مستودعات الفحم اللازمة للسفن العثمانية ، فى حين أن مهمته الحقيقية كانت الحصول على ولاء شيخ البحرين للسلطان العثمانى وأقلقت هذه الزيارة السلطات البريطانية فى الهند ، خصوصاً حينما نمى إليها أن شيخ البحرين قد أعرب عن سروره لرؤية السفينتين العثمانيتين اللتين اصطحبهما عارف بك معه فى زيارته قائلا : « إن البحرين لم تر منذ قرنين سفناً عثمانية فى هذا البحر » ، ثم تنازل عن بعض الأراضى لإقامة مستودعات الفحم اللازمة للسفن العثمانية . وراحت السفن العثمانية منذئذ تكثر من ترددها على البحرين بدعوى التزود بالماء والفحم .

---

(١) Longrigg, S.H. : op. cit., p. 303.
وفى عام ١٨٧٥ رفعت مدينة البصرة من درجة متصرفية إلى ولاية مستقلة عن ولاية بغداد وأصبحت تضم سنجق الكويت ومتصرفية الأحساء ، وتمتد إلى مدينة البيضاء فى شبه جزيرة قطر .

(٢) Hayder, A.M. : The Life of Midhat Pasha, pp. 59-60.

ومن الواضح أن هاتين الاتفاقيتين قد زودتا بريطانيا بالسلطة الكافية لمناوأة تحركات العثمانيين فى جزر البحرين ولدعم سيطرتها فى هذه الجزر . وفى عام ١٨٩٣ أسست بريطانيا وكالة سياسية لها فى البحرين ، واتخذ الوكيل السياسى البريطانى مقراً له فى المنامة ، وأصبح المتصرف الوحيد فى شئون الإمارة، خصوصاً بعد أن استحوذ على حق الفصل فى قضايا الأجانب .وفى عام ١٨٩٨ وقع الشيخ عيسى إعلاناً يحرم استيراد أو تصدير الأسلحة من البحرين وإليها ، كما سمح للسفن الفارسية والإنجليزية بتفتيش السفن المشتغلة بتلك التجارة فى مياه البحرين الإقليمية . وفى عام ١٩٠١ زودت بريطانيا وكيلها السياسى فى البحرين بصلاحيات واسعة ، وعينت مستشاراً بريطانياً إلى جانب شيخ البحرين فى المنامة ، واستولت عام ١٩٠٥ على ميناء الزبارة ، ثم جعلت لنفسها الحق فى استغلال ثروة البحرين بمقتضى اتفاقيتين عقدتهما مع شيخ البحرين الأولى فى أواخر عام ١٩١١ بشأن استغلال مصايد اللؤلؤ والإسفنج والثانية فى ١٤ مايو عام ١٩١٤، وبها تعهد شيخ البحرين بألا يسمح باستغلال البترول لأى شخص ، ولا حتى يقوم هو باستغلاله لنفسه ، إلا بعد الحصول على موافقة الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين(١) .

وعلى هذا النحو استطاعت بريطانيا أن تبعد النفوذ العثمانى عن البحرين وتنفرد هى بالسيطرة الفعلية عليها .

محاولات التوسع العثمانى فى الكويت :

ظلت إمارة الكويت حتى أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر تخضع للسيادة العثمانية الاسمية . وكانت الكويت فى هذا الوقت قد نمت وأضحت لها

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

أهمية تجارية فى الخليج العربى حتى سميت بمرسيليا الشرق . وجرياً وراء استعادة نفوذهم فى الولايات العربية ، منح العثمانيون كما عرفنا عبد الله آل الصباح منصب القائمقام عام ١٨٧٠ . وكان للمساعدات التى قدمها الشيخ عبد الله لحملة نافذ باشا على الأحساء عام ١٨٧١ ثم معاونته السلطات التركية فى إخماد معظم الثورات التى اندلعت ضد الحكم التركى فى القطيف والأحساء ، أكبر الأثر فى رضاء الدولة العثمانية عليه ، حتى أنها منحته لقب باشا وأغدقت عليه أراضى واسعة على شاطىء الفرات بالقرب من الفاو .

وفى عام ١٨٩٢ توفى عبد الله آل الصباح وخلفه أخوه محمد ، الذى كان ضعيفاً ويفتقر إلى الكفاءة ، فوكل أمور الإمارة إلى مستشاره الشيخ يوسف بن عبد الله آل إبراهيم ، وهو من كبار تجار اللؤلؤ فى الكويت وتربطه صلة المصاهرة بأسرة الصباح . وكان الشيخ يوسف قد أتى إلى الكويت من مقاطعة الدورة التى لا تبعد كثيراً عن عبدان على الجانب الشرقى لشط العرب ، حيث كان يملك هناك ثروة طائلة . زد على ذلك أن الشيخ يوسف كان موالياً للأتراك ويحدوه الأمل فى أن يعزلوا آل الصباح من أمارة الكويت ويعينوه هو وأسرته مكانهم . وكان لمحمد آل الصباح أخ شقيق يدعى جراح ، وآخر غير شقيق يدعى مبارك . وكان محمد وجراح يعاملان مباركا بكل قسوة ويضيقان عليه تضييقاً شديداً ، مما جعله يحنق عليهما ، وازداد حنقه عندما وجد أنهما قد سلما أمور الإمارة إلى يوسف ابن عبد الله ، الذى كان مبارك يدرك نواياه الحقيقية . ولم يستطع مبارك أن يحتمل هذا الوضع طويلا ، فقام فى مايو عام ١٨٩٦ بقتل أخويه واستولى على السلطة ، وهرب يوسف بن عبد الله إلى البصرة(١) .

وأخذ يوسف يحرض حمدى باشا والى البصرة على مبارك ويحثه على

(١) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 136.

إرسال حملة عسكرية لعزله وتمكين أحد أبناء أخيه المقتول محمد من الاستيلاء على الحكم ، فى الوقت الذى راح مبارك يتودد إلى رجب باشا والى بغداد بإرسال الهدايا إليه ، محاولا بذلك استمالته إلى جانبه . ونجحت محاولة مبارك ، إذ كتب رجب باشا إلى الباب العالى محذراً من عواقب التدخل العسكرى ضد مبارك وواصفاً حادث مقتل محمد وجراح بأنه لا يعدو أن يكون من الحوادث العادية المألوفة بين البدو . واستجاب الباب العالى لتحذير والى بغداد ، فأصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى يناير عام ١٨٩٧ فرماناً بتعيين مبارك قائمقاماً على الكويت .

ومن المحتمل أن قبول مبارك لمنصب القائمقام كان يرجع إلى خوفه من ضياع ممتلكات أسرته فى الفاو . ومع ذلك ، فقد قاوم مبارك محاولات الأتراك الرامية إلى بسط سلطتهم فى الكويت . وعندما أرسل الأتراك فى فبراير عام ١٨٩٧ موظفاً للحجر الصحى فى ميناء الكويت ، أبدى مبارك رغبته فى مقابلة المقيم البريطانى فى الخليج أو من ينوب عنه . وفى سبتمبر وصل إلى الكويت أحد مساعدى المقيم البريطانى ، وأبلغه مبارك أنه وشعبه حريصون على تجنب ضم بلادهم إلى الدولة العثمانية ، ولذا فإنهم يرغبون فى وضع أنفسهم تحت حماية بريطانيا(١) .

والواقع أنه حتى اغتصاب مبارك للسلطة عام ١٨٩٦ ، لم تكن إمارة الكويت رغم موقعها الجغرافى الممتاز تحظى باهتمام كبير من جانب بريطانيا، إذ كانت حكومة لندن تعترف بتبعية هذه الإمارة للباب العالى(٢). زد على ذلك أن قبول مبارك لمنصب القائمقام كان يجعل من الصعب على بريطانيا الاعتراف به كأمير مستقل عن الدولة العثمانية . ولما لم يكن قد طرأ أى

---

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 137.

(٢) Wilson, A.T. : The Persian Gulf, p. 251.

تغيير على موقف بريطانيا تجاه الكويت أواخر عام ١٨٩٧ ، فقد رفضت حكومة سولسبرى الثالثة (١٨٩٥ — ١٩٠٢) عرض مبارك ، حرصاً منها على عدم إثارة الدولة العثمانية ، ولتجنب تكدير السلام فى منطقة الخليج العربى(١).

على أنه سرعان ما تدخل عامل هام دفع السلطات البريطانية فى الهند إلى إعادة النظر فى العرض الكويتى ، ألا وهو تردد الشائعات فى الهند عن مساعى روسيا لإيجاد منفذ لها على الخليج العربى ، بالإضافة إلى مساعى بعض رجال الأعمال الروس من أجل الحصول من الباب العالى على امتياز لبناء خط حديدى من الساحل السورى إلى الخليج .

النشاط الروسى واتفاقية ١٨٩٩ بين بريطانيا والكويت :

وكان النشاط الروسى فى الخليج قد استرعى انتباه الإنجليز منذ عام ١٨٨٧ ، حين قام بعض الضباط الروس الذين يعملون فى خدمة الحكومة الإيرانية بزيارة أصفهان وشيراز وبوشهر . وأعقب ذلك أن قام أحد المهندسين الروس برحلة من بندر عباس إلى هرمز . وفى عام ١٨٩٧ عين كروجلو Kruglo قنصلا لروسيا فى بغداد ، فأخذ يعمل للظفر بميناء أو محطة فحم لبلاده على الخليج ، إلى جانب بسط النفوذ الروسى حتى الكويت .

غير أنه حدث فى خريف عام ١٨٩٨ أن عين لورد كيرزون Curzon — المعروف باهتمامه الشخصى بمنطقة الخليج منذ أن كان سفيراً لبريطانيا فى طهران — نائباً للملك أو حاكماً عاماً فى الهند ، فذهب إلى هناك وهو تساوره الشكوك فى نشاط الروس فى إيران ووسط آسيا ، مما جعله يصمم على الدفاع عن مركز بريطانيا ومصالحها فى الخليج مهما كلفه ذلك من ثمن(٢).

---

(١) Wilson, A.T. : op. cit., p. 252.

(٢) Langer, W.L. : The Diplomacy of Imperialism, p. 642.

ثم قال كيرزون إن الكولونيل لوك Locke القنصل البريطانى فى بغداد والكولونيل ميد Meade المقيم البريطانى فى الخليج قد أبلغاه بأنه لاتوجد أية صلة بين الأتراك والكويت ، وأن الاتراك موضع كراهية عرب الكويت ، وأن الكويت لا تدفع الجزية لتركيا ، كما أنه لاتوجد قوات عسكرية تركية فى هذه الإمارة . وأعرب كيرزون عن اعتقاده بأن أى اعتراف ضمنى بسيادة تركيا أو أية دولة أجنبية على الكويت ، إنما هو أمر محفوف بالمخاطر بالنسبة للمصالح البريطانية فى الخليج ، وسوف يسبب للانجليز المتاعب فى المستقبل . وفضلا عن ذلك ، فإن مد خط روسى ينتهى عند الكويت سوف يضر بالمصالح البريطانية ضرراً بالغاً .

وخلص كيرزون من ذلك كله إلى القول بأنه لاتزال هناك فسحة من الوقت لتجنب مثل هذه الأخطار المتوقعة ، وأن الخطوة التى يوصى باتخاذها ، هى انتهاز فرصة مناسبة — وإذا أمكن مبكرة — لبسط الحماية البريطانية على الكويت — وهى الحماية التى يطالب بها شيخ الكويت باستمرار منذ سنوات ، ولسوف يرحب بها — وذلك بنفس الطريقة التى بسطت بها الحماية البريطانية على البحرين عام ١٨٩٢ . وكان من رأى كيرزون أنه مع فرض الحماية البريطانية على الكويت ، إلا أنه ليست هناك حاجة للتدخل فى الشئون الداخلية لهذه الإمارة ، وأشار بأن يكتفى بتخصيص سفينة حربية بريطانية لكى تقوم بزيارة الكويت من حين لآخر ، وبذلك يصبح فى وسع بريطانيا أن تمنع أية دولة أخرى من أن ترفع علمها على الكويت وأن تحبط أية محاولة قد يقوم بها الأتراك لمهاجمة هذه الإمارة والاستيلاء عليها (١) .

(١) انظر الملحق رقم ٧ من كتاب الخليج العربى والعلاقات الدولية للدكتور محمود على الداود ، وهو بعنوان :

Extracts from Lord Curzon's Confidential Memorandum, 19 November 1898. F.O. 60/599 (Public Record Office).

ولم يمض وقت طويل على إرسال هذه المذكرة حتى كلف كيرزون الكولونيل مالكولم جون ميد المقيم السياسى فى الخليج بالتوجه إلى الكويت لإجراء مفاوضات مع شيخها تستهدف وضع الإمارة تحت الحماية البريطانية . وفى ٢٣ أبريل عام ١٨٩٩ أبرم ميد اتفاقية مع الشيخ مبارك ، تعهد فيها الأخير ، بإرادته الحرة ورغبته ، وبالنيابة عن ورثته وخلفائه من بعده ، بألا يستقبل وكيلا أو ممثلا لأية دولة أو حكومة فى الكويت ، أو فى أى مكان آخر داخل حدود أراضيه ، بدون الإذن السابق من الحكومة البريطانية . وفضلا عن ذلك ، فقد تعهد شيخ الكويت بألا يتنازل أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يعطى بغرض الاحتلال أو لأى غرض آخر ، أى جزء من أراضيه إلى حكومة أو رعايا أية دولة أخرى بدون الموافقة السابقة للحكومة البريطانية . ونصت الاتفاقية على أن ينسحب هذا الارتباط كذلك على أى جزء من أراضى الشيخ مبارك ، والذى قد يكون الآن فى حيازة أى من رعايا أية حكومة أخرى(١) . ويذكر المؤرخون أن بريطانيا قد تعهدت فى مقابل ذلك بمنح شيخ الكويت مساعدة مالية والدفاع عن إمارته وحماية مصالحها فى الخارج .

على أنه إذا كان ازدياد النشاط الروسى فى الخليج العربى والخوف من أن تصبح الكويت محطة لفحم روسى أو نهاية لخط حديدى روسى هو الذى دفع لورد كيرزون إلى الإسراع بإرسال الكولونيل ميد لإبرام اتفاقية عام ١٨٩٩ مع شيخ الكويت ، فإن ثمة عوامل أخرى هى التى حفزت الشيخ مبارك على الارتباط مع بريطانيا بالصورة المتقدمة ، وهى عوامل ناجمة عن توتر علاقاته مع الدولة العثمانية من جهة ومع بعض جيرانه من جهة

(١) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى . الوثيقة رقم ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

Hurewitz, J.C. : op. cit., vol. 1, Doc. No. 100, pp. 218-9.

أخرى ، وخوفه من أن تلجأ الدولة إلى تسيير الحملات ضده وتأليب القوى الضالعة معها فى شبه جزيرة العرب عليه .

فقد ظلت الدولة العثمانية تسعى لبسط نفوذها على الكويت ، وترددت شائعات عن تجمع القوات العثمانية فى البصرة ، حيث كان من المنتظر أن تزحف من هناك على الكويت لعزل الشيخ مبارك الذى لم تكن علاقته طيبة بوالى البصرة . والواقع أن اشتراك الكويت مع حدود العراق كان يجعل إرسال الحملات التركية إلى تلك الإمارة سهلا ميسوراً .

زد على ذلك أن السلطان عبدالحميد الثانى، رغم أنه كان قد اعترف بالأمر الواقع فى الكويت وأصدر فى يناير عام ١٨٩٧ فرماناً بتعيين الشيخ مبارك قائمقاماً على تلك الإمارة، إلا أنه لم ينس أن مباركاً هذا قد قتل عام ١٨٩٦ شقيقه محمداً وهو يمثل السلطان فى الكويت ثم تبوأ العرش دون أن يتم الحصول على موافقة الباب العالى . ولم يكن من المنتظر أن تمر هذه المسألة دون عقاب، ولهذا الغرض تحول الأتراك من جديد إلى مساندة عبدالعزيز ابن متعب آل الرشيد أمير حائل، وأفهموه بأن من يمتلك الرياض ونجداً، عليه أن يمتلك أيضاً الكويت ومنفذاً على الخليج العربى ، ووعدوه بأن يتنازلوا له عن ميناء الكويت إذا تخلص من الشيخ مبارك واعترف بسيادة الدولة من جديد(١). ولقى تحريض الدولة أذناً مصغية من جانب ابن الرشيد الذى كان يتطلع إلى التوسع صوب الخليج العربى . وعلى ذلك ، فقد كان من الطبيعى أن يشعر الشيخ مبارك بالقلق على إمارته من ناحية أطماع التوسع التى تراود ابن الرشيد(٢) .

ولهذه الأسباب إذن ، وفى سبيل الحفاظ على الكويت من أطماع الأتراك وابن الرشيد ، لجأ الشيخ مبارك إلى عقد اتفاقية عام ١٨٩٩ مع

(١) Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, p. 73.

(٢) أحمد على : آل سعود ص ١١٨ — ١١٩ .

بريطانيا . ومن الجدير بالذكر أن هذه الاتفاقية كانت صورة طبق الأصل تقريباً من اتفاقية عام ١٨٩١ المعقودة بين بريطانيا وسلطان مسقط فيصل ابن تركى ، أو بالأحرى كانت الاتفاقيتان تستندان إلى أسس واحدة تقريباً(١) . ورغم أن اتفاقية عام ١٨٩٩ لم تنص صراحة على فرض الحماية البريطانية على الكويت ، إلا أنها كانت من الناحية العملية تفرض حماية بريطانيا على هذه الإمارة .

ومما يستلفت النظر أن اتفاقية عام ١٨٩٩ بين بريطانيا والكويت قد أبرمت فى سرية تامة حرصاً على عدم إثارة الدولة العثمانية والدول الأوروبية المهتمة بالخليج . غير أن بعض المؤرخين يؤكدون أن الأتراك كانوا على علم بهذه الاتفاقية وبتطور النفوذ البريطانى فى الخليج(٢)، أو على الأقل أحسوا بأن هناك ارتباطاً معيناً بين بريطانيا والشيخ مبارك ، وهو ارتباط كان بطبيعة الحال موجهاً ضدهم وضد سياستهم التوسعية فى الخليج ، ولذا لجأوا إلى إثارة المتاعب فى وجه الشيخ مبارك . وكان الأخير يملك أراضى زراعية واسعة وبساتين نخيل فى منطقة البصرة ، فصار حمدى باشا والى البصرة يساند إخوة مبارك ضد ادعاءاته بملكية هذه الأراضى والبساتين ، كما حاول إدخال أمراء آل الصباح اللاجئين فى البصرة فى مشاريع سياسية تستهدف التخلص من مبارك ومحاربة النفوذ البريطانى فى الكويت .

وفى مايو عام ١٨٩٩ أسس الشيخ مبارك عوائد منتظمة أو دائرة مكوس جمركية فى ميناء الكويت ، وشرع يحصل رسوماً إضافية مقدارها ٥ ٪ على جميع الواردات بما فيها القادمة من الموانى التركية . ويغلب على الظن أن الدولة العثمانية لما علمت بذلك ، وجرياً وراء إثارة المتاعب فى

(١) Wilson, A.T. : The Persian Gulf, pp. 237, 252.

(٢) محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ١٢١ .

وجه مبارك ، كلفت والى البصرة بإرسال أحد كبار موظفي الجمارك إلى الكويت ليتسلم دائرة الميناء الجمركية ، باعتبار أن الكويت خاضعة للسيادة العثمانية . وفي سبتمبر وصل لهذا الغرض الموظف التركي برفقة خمسة من الجنود إلى الكويت ، ولكن الشيخ مبارك رفض استقبالهم ، فاضطروا للعودة إلى البصرة(١) .

وفي أثناء ذلك كان السلطان عبد الحميد الثاني يبدي اهتماماً كبيراً بقضية الكويت . وفي ٤ سبتمبر عام ١٨٩٩ بعث برسالة إلى سير نيقولاس أوكونور Nicholas O'Conor سفير بريطانيا في الآستانة ، قال فيها إنه يعلم بأهمية الخليج العربي بالنسبة للمصالح البريطانية ، وهو يقدر رغبة الحكومة البريطانية بعدم السماح لأية دولة أوروبية أخرى بالتدخل في شئون الخليج وعرقلة الطرق التجارية المؤدية إلى الهند . وأكد السلطان بأن تركيا لن تسمح لأية دولة أوروبية (ماعدا بريطانيا) بالحصول على امتيازات تجارية في مياه الخليج العربي ، ولكنها ليست مستعدة للتنازل عن البصرة أو الكويت أو البحرين أو القطيف(٢) .

وعلى كل حال ، فمع أن وليم لانجر يرى أن اتفاقية عام ١٨٩٩ السرية بين بريطانيا والكويت كانت موجهة بصفة أساسية ضد المخططات الروسية في منطقة الخليج العربي(٣) ، إلا أنه مما لاشك فيه أنه كان من بين أهداف إبرام هذه الاتفاقية سد الطريق أمام الدولة العثمانية في منطقة الخليج وإحباط محاولاتها للسيطرة على الكويت .

(١) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, p. 137.

(٢) محمود على الداود : المصدر السابق ص ١٢٢ – ١٢٣ .

(٣) Langer, W.L. : The Diplomacy of Imperialism, p. 642.

كيرزون وإحباط مشروعات فرنسا في مسقط :

ولقد تلا إبرام اتفاقية ١٨٩٩ بين بريطانيا والكويت أن أعلن سلطان مسقط في أوائل فبراير عام ١٨٩٩ تنازله عن بندر الجصة ، وهو ميناء يقع على مسافة خمسة أميال إلى الجنوب الشرقي من ميناء مسقط ، للحكومة الفرنسية لكي تقيم فيه محطة للفحم . ولما كان من المعروف أن ثمة تفاهماً أو اتفاقاً بين روسيا وفرنسا لمقاومة النفوذ البريطاني في إيران والخليج العربي ، فقد أثار إعلان سلطان مسقط حفيظة لورد كيرزون ، واعتبره مخالفاً لمعاهدة الصداقة والتجارة والملاحة المعقودة بين بريطانيا وسلطان مسقط في مارس عام ١٨٩١ ، وهي المعاهدة التي تعهد السلطان بموجبها « عن نفسه وورثته وخلفائه بعدم التنازل عن ممتلكات مسقط وعمان أو أي من ملحقاتهما أو بيعها أو رهنها أو السماح باحتلالها لغير الحكومة البريطانية »(١) .

ومن الواضح أن معاهدة ١٨٩١ بين بريطانيا ومسقط قد حددت بشكل نهائي الحماية البريطانية على سلطنة مسقط دون أن تنص على ذلك صراحة. ولما كان ذلك يخل بالاتفاقات السابقة المعقودة بين بريطانيا وفرنسا ، وخصوصاً التصريح البريطاني الفرنسي الصادر في ١٠ مارس عام ١٨٦٢(٢) الذي تعهدت فيه الدولتان باحترام استقلال سلطنة مسقط(٣). فقد أبرمت بريطانيا معاهدة ١٨٩١ مع مسقط في سرية تامة ، وظلت حريصة على هذه السرية رغم ظهور النشاط الفرنسي في سلطنة مسقط خلال الأعوام التالية ،

(١) Wilson, A.T. : The Persian Gulf, p. 237.

(٢) Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements, and Sandas relating to India and Neighbouring Countries, vol. XII, pp. 226-7 ; Ortroy, V. : Conventions Internationales définissant les limites actuelles des Possessions, Protectorats et Sphères d'Influence en Afrique, p. 37.

(٣) الى جانب سلطنة زنجبار في شرق إفريقية .

حتى اضطرت أن تكشف النقاب عنها إبان اشتداد الأزمة بين بريطانيا وفرنسا بسبب تنازل سلطان مسقط لفرنسا عن بندر الجصة .

وبينما كان موقف حكومة سولسبرى الثالثة إزاء هذه الأزمة يشوبه التردد والحذر حرصاً على تهدئة العلاقات البريطانية الفرنسية ، فإن رد الفعل الحازم حيالها جاء من جانب حكومة الهند البريطانية . إذ أنه بمجرد أن أعلن سلطان مسقط عن تنازله السابق لفرنسا حتى أسرعت حكومة الهند بإرسال الكولونيل ميد إلى مسقط لكى يطالب السلطان بإلغاء هذا التنازل . وعندما انتهت المدة المحددة للإنذار الذى قدمه المقيم البريطانى إلى السلطان ، أقلعت بعض قطع الأسطول البريطانى من بومباى فى ٩ فبراير صوب مسقط ، وتحت التهديد بقصف الميناء بالمدافع ، اضطر السلطان أن يرضخ لمشيئة بريطانيا ، فألغى تنازله السابق عن بندر الجصة لفرنسا .

ومع أن لورد سولسبرى قد ضايقته الطريقة التى تصرفت بها حكومة الهند البريطانية ، خشية أن ينجم عنها انفصام العلاقات بين بريطانيا وفرنسا فى وقت كانت المفاوضات جارية بين الدولتين لتسوية الخلاف الذى أثاره حادث فاشودة فى أعالى النيل(١) ، فإنه مما لاريب فيه أن كيرزون قد نجح بهذه الطريقة الفجة فى مواجهة النشاط الفرنسى وإحباط مشروعات فرنسا فى مسقط ، كما أحبط منذ شهر مضى مشروعات روسيا فى الخليج ومحاولات الدولة العثمانية للسيطرة على الكويت . وبذا تفرغ أو كاد لمواجهة النشاط الألمانى فى الخليج ، وهو النشاط الذى يرتبط بمشروع سكة حديد برلين -

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ص ٥١٨ — ٥٣٧ وانظر كذلك :

Riker, T.W. : « A Survey of British Policy in the Fashoda Crissis », Political Science Quarterly, XLIV, New York, 1929, pp. 54-78.

القسطنطينية - بغداد ، الذى كانت نهايته المقترحة هى الكويت(١) .

النشاط الألمانى ومشروع سكة حديد بغداد :

من المعروف أن الدولة العثمانية كانت تعتمد إبان القرن التاسع عشر على تأييد بريطانيا ضد الخطر الزاحف من روسيا القيصرية نحو البلقان والبحر الأسود ، وأن بريطانيا كانت تتبع سياسة حماية الإمبراطورية العثمانية والمحافظة على تكاملها السياسى ، مما أتاح لها الفرصة للسيطرة على الاقتصاد العثمانى . غير أن بريطانيا لم تلبث أن تخلت بصورة واضحة عن سياستها التقليدية إزاء الدولة العثمانية منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ وراحت تعتدى على الممتلكات العثمانية ، فاحتلت قبرص عام ١٨٧٨ ومصر عام ١٨٨٢ . وكان الاحتلال البريطانى لمصر — على حد قول سير جون ماريوت — الضربة الأخيرة الموجهة للصداقة التقليدية بين بريطانيا وتركيا(٢) .

وكان على السلطان عبد الحميد الثانى أن يواجه اعتداءات بريطانيا ، بيد أنه لما كان لايملك القوة العسكرية اللازمة لإرجاع الإنجليز عن غيهم فقد لجأ إلى محاربة المصالح الاقتصادية البريطانية فى العراق ، وحاول بناء استحكامات عسكرية على شط العرب لمقاومة التجارة البريطانية ، وأمد شيوخ العرب فى البصرة بالمال والسلاح لمقاومة النفوذ البريطانى فى الخليج كما أخذ يشجع أمراء قطر على احتلال جزر البحرين وبسط السيادة العثمانية عليها ، وأرسل البعوث إلى آل الرشيد فى حائل وإلى أمراء عمان ومسقط والهند يستحثهم ضد الإنجليز . زد على ذلك كله أن عبد الحميد اتجه إلى مقاومة المشاريع البريطانية الاقتصادية فى آسيا الصغرى مقاومة عنيفة ، وراح يستعين برؤوس الأموال الفرنسية والألمانية والفنيين والخبراء

(١) Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny, pp. 75-6.

(٢) Marriott, Sir J. : The Eastern Question, p. 394.

الألمان فى تنفيذ مشروعاته المختلفة ، مما نجم عنه أن احتل الألمان والفرنسيون مركز الإنجليز فى الاقتصاد العثمانى(١) .

ومما يجب الالتفات إليه أنه رغم أن ألمانيا قد أصبحت بعد الحرب السبعينية سيدة الدول الأوروبية ، كما غدا بسمارك مستشار الرايخ الألمانى سيد الموقف السياسى فى أوروبا ، إلا أن ألمانيا لم يكن لها إبان العقد السابع من القرن التاسع عشر نفوذ سياسى أو اقتصادى يذكر فى منطقة الشرق الأدنى ، ولم يكن لها من أثر فى ربوع هذه المنطقة سوى نشاط إرسالياتها الدينية فى بلاد الشام . إذ أن بسمارك كان منذ عام ١٨٧٠ شديد الاهتمام بالموقف الأوروبى وبمحاولة عزل فرنسا سياسياً عن بقية الدول الأوروبية حتى لا تجد فرنسا حليفاً تعتمد عليه فى الثأر لنفسها من هزيمة الحرب السبعينية واسترداد الألزاس واللورين(٢) . وقد ظل بسمارك يعمل فى سبيل عزل فرنسا حتى نهاية حياته السياسية ، كما امتنع عن ممارسة أى نشاط استعمارى فى منطقة الشرق الأدنى حتى لا يغل هذا النشاط يده عن تحقيق سياسته فى عزل فرنسا . ومع ذلك ، فقد شاهد عهد بسمارك بداية ظهور النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية . وتعددت مظاهر هذا النفوذ فكان هناك التفوق السياسى الألمانى فى الآستانة ، كما كان هناك نفوذ البعثات العسكرية الألمانية التى تولت تنظيم وتدريب الجيش العثمانى ، وفى مقدمتها بعثة الجنرال فون دير جولتز von der Goltz ، التى أقنع السفير الألمانى فى الآستانة السلطان عبد الحميد الثانى باستقدامها عام ١٨٨٣(٣) .

---

(١) محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) عن سياسة بسمارك الأوروبية أنظر الكتاب التالى .
Taylor, A.J.P. : The Struggle for Mastery in Europe, Oxford 1954.

(٣) Earle, E.M. : op. cit., p. 38.

على أن سقوط بسمارك عام ١٨٩٠ واستئثار الإمبراطور الشاب ولهلم الثانى Wilhelm II بالحكم فى ألمانيا ، كان فاصلا بين عهدين أو بالأحرى بين سياستين مختلفتين : سياسة مستشار الرايخ السابق بسمارك ، وسياسة امبراطور ألمانيا الجديد ولهلم الثانى الذى اعتلى العرش فى يونيو عام ١٨٨٨ . فقد كان ولهلم الثانى يمثل عصر الطموح الألمانى ، ولم يكن كبسمارك يخشى التكتلات ضد ألمانيا ويقنع بتفوق ألمانيا عسكرياً فى أوروبا ، بل كان يتطلع إلى مجالات استعمارية فيما وراء القارة الأوروبية . وفى كلا الاتجاهين : الاتجاه الغربى ببناء أسطول وبحرية كبيرة للسيطرة على المحيط الأطلنطى ، والاتجاه الشرقى ببسط النفوذ الألمانى فيما وراء النمسا أى فى الدولة العثمانية ، وهى السياسة المعروفة بالاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten ، التى كانت تحظى بتأييد مجموعة من الرأسماليين الألمان(١) ، والتى كان من المستطاع تحقيقها إن لم يكن عن طريق التوسع العسكرى ، فعلى الأقل عن طريق التغلغل الاقتصادى .

ومن الضرورى أن نشير إلى أن طبيعة الدولة الألمانية وقتئذ كانت تحتم اتباع سياسة التغلغل الاقتصادى فى الدولة العثمانية . فقد كان عدد سكان ألمانيا فى تزايد مستمر ، فى حين كانت البلاد تعانى من نقص المواد الغذائية . ولا يخفى أن نمو ألمانيا الصناعى قد جاء على حساب الإنتاج الزراعى والأيدى العاملة فى الريف ، كما أن الكثير من الصناعات الألمانية — وخصوصاً صناعة المنسوجات — كانت تعتمد على المواد الأولية ، وفى نفس الوقت كانت الدولة العثمانية غنية بمواردها الأولية . ولهذا كانت الطبقة الرأسمالية فى ألمانيا تحبذ إقامة نظام من المحالفات الاقتصادية فى وسط أوروبا على نمط المحالفات العسكرية التى أنشأها بسمارك من قبل ، وكانت

---

(١) Somervell, D.C. : Modern Europe, 1871-1939, p. 49.

ترى أن إقامة هذه المحالفات الاقتصادية سوف يجعل من ألمانيا وحلفائها وحدة مكتفية ذاتياً بمواردها الاقتصادية ومتحررة من الاعتماد على قوة بريطانيا البحرية ، على أن تدخل الدولة العثمانية فى نطاق هذه المحالفات الاقتصادية . إذ كانت الرأسمالية الألمانية تدرك أنه فيما وراء البسفور شرقاً تقع بلاد غنية بمواردها الطبيعية ، بلاد يمكن أن تمد مصانع المنسوجات الألمانية بحاجتها من الاقطان الجيدة ، بلاد كانت فى العصور القديمة غنية بمواردها الزراعية ، بلاد يمكن أن تصبح سوقاً رائجة للبضاعة الألمانية .

وهكذا كان تطور ألمانيا كدولة صناعية هو الذى أفضى إلى اهتمامها الكبير بمنطقة الشرق الأدنى ، وظهور سياسة ألمانية واضحة المعالم إزاء تركيا Die deutsche Türkenpolitik ، وهى سياسة تهدف إلى استغلال موارد تركيا المعدنية والزراعية عن طريق بناء شبكة ضخمة من الخطوط الحديدية تحت السيطرة الألمانية(١) .

وجدير بالذكر أنه حتى خريف عام ١٨٨٨ لم يكن الألمان يهتمون بمشروعات بناء السكك الحديدية فى آسيا الصغرى . وكان السلطان عبدالعزيز قد دعا عام ١٨٧٢ المهندس الألمانى ولهلم فون برسل Von Pressel — الذى نال شهرة عالمية بسبب خدماته فى بناء خطوط حديدية هامة فى سويسرا والتيرول — لوضع مشروعات لتطوير طرق المواصلات فى آسيا الصغرى ، فتقدم هذا المهندس باقتراح لمد سكة حديدية من حيدر باشا إلى البسفور إلى أنقرة وديار بكر والموصل وبغداد ، وهو الخط الذى بدأ تنفيذه تحت الإشراف التركى ، إلا أنه لم يستمر إلى ما وراء أزمير (التى تبعد ٩١ ميلا عن حيدر باشا) لضعف المقدرة المالية التركية على إكماله(٢).

(١) Earle, E.M. : op. cit., pp. 29-52.

(٢) محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ١٩٦ .

وفى خلال السنوات التالية انهمك فون برسل فى بناء شبكة من الخطوط الحديدية فى البلقان ، وتم بناؤها وافتتحت لنقل المسافرين والمتاجر فى صيف عام ١٨٨٨ . وكانت هذه الشبكة تمتد من حدود النمسا عبر شبه جزيرة البلقان إلى القسطنطينية ، وترتبط فى الوقت نفسه بالخطوط الحديدية فى النمسا ـ المجر وغيرها من الدول الأوروبية ، مما ترتب عليه أن صارت العاصمة العثمانية تتصل اتصالا مباشراً بفينا وباريس وبرلين ولندن (عن طريق كاليه)(١) .

وقبل أن يتم بناء شبكة الخطوط الحديدية فى البلقان ، كان السلطان عبد الحميد الثانى يفكر فى تنفيذ اقتراح المهندس فون برسل بشأن مد خط حديدى من البسفور إلى بغداد والخليج العربى ، وهو خط من شأنه إذا اتصل بالخطوط الحديدية القائمة فى الأناضول وبشبكة الخطوط الحديدية المزمع إنشاؤها فى بلاد الشام ، أن يربط القسطنطينية بأزمير وحلب ودمشق وبيروت والموصل وبغداد . ودون أدنى شك لم يكن السلطان عبد الحميد الثانى أقل اهتماماً من فون برسل والممولين ورجال الأعمال الأجانب عموماً بمد الخطوط الحديدية داخل إمبراطوريته . إذ كان يعتقد أن السكك الحديدية سوف تخدم أغراضه ، فبواسطتها يستطيع :

أولا — أن يمارس سلطة فعلية على رعاياه الثائرين فى بلاد الشام والعراق وكردستان وشبه جزيرة العرب وغيرها من ولايات الدولة .

ثانياً — أن يرغم هذه الولايات باستخدام القوة إذا لزم الأمر على أن تقدم حصتها من الجند والأموال للدفاع عن الامبراطورية من الأخطار الخارجية .

(١) Earle, E.M. : op. cit., p. 29.

ثالثا — أن يجمع الضرائب من ولايات الامبراطورية ، ويحافظ على الأمن والنظام فيها ، ويدافع عنها ضد الغزو الأجنبي .

ولهذه الأسباب إذن ، إن لم يكن لأسباب أخرى تتصل بتنمية الصناعة المعدنية والزراعية ، كان السلطان عبد الحميد الثاني يحبذ مد سكة حديد بغداد .

وحين عرض مشروع بناء خط حديدي من البسفور إلى أنقرة على الممولين الانجليز رفضوه ، بينما أبدى الممولون الألمان استعدادهم لتنفيذه . ومن المرجح أن إعراض الممولين الإنجليز عن هذا المشروع يرجع إلى اهتزاز ثقة البيوت المالية الانجليزية بالاقتصاد التركي بعد الأزمة المالية الطاحنة التي عانتها تركيا منذ عام ١٨٧٥ والتي أدت إلى إعلان إفلاس الخزانة التركية في هذا العام(١) وعلى كل حال، فبمساعدة البنك الألماني Deutsche Bank ، أنشئت مؤسسة ألمانية لتتولى تنفيذ المشروع . وفي ٦ أكتوبر عام ١٨٨٨ حصلت هذه المؤسسة على امتياز لبناء خط حديدي من البسفور إلى أنقرة، وصار إفهامها بأن الباب العالي يرغب في مد هذا الخط إلى بغداد عن طريق صامصون وسيفاس وديار بكر . وبذلك تأسست شركة خط حديد الأناضول (La Société du Chemin de Fer Ottomane d'Anatolie) وهي أول الشركات الألمانية التي كلفت بتنفيذ مشروعات السكك الحديدية في تركيا (٢) .

على أن بسمارك لم يكن ينظر بارتياح إلى امتداد مصالح ألمانيا الاقتصادية ونفوذها السياسي إلى الإمبراطورية العثمانية ، لأنه كما سبق أن ذكرنا كان

(١) Blaisdell, D.C. : European Financial Control in the Ottoman Empire, p. 80.

(٢) Earlel, E.M. : op. cit., pp. 31-2

يهتم بصفة أساسية بعزل فرنسا سياسياً في القارة الأوروبية ويريد أن يتجنب المنازعات التجارية والاستعمارية فيما وراء البحار ، كما أنه لم يكن يرغب في التورط في مشكلة الشرق الأدنى خوفاً من الاصطدام مع أطماع روسيا في القسطنطينية ، وهي الدولة التي بذل كل مافي وسعه لربطها بدول التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وايطاليا) ضماناً لعزلة فرنسا . ولكن الامبراطور ولهلم الثاني الذي اعتلى العرش في يونيه عام ١٨٨٨ ضرب عرض الحائط بسياسة بسمارك ، وجاءت زيارته للسلطان عبد الحميد الثاني في الآستانة في نوفمبر عام ١٨٨٩ مؤذنة ببداية مرحلة جديدة تماما في سياسة ألمانيا تجاه تركيا(١). ولا شك أن هذه الزيارة كانت لها دلالتها ومغزاها من الناحيتين السياسية والاقتصادية . إذ جاءت في وقت كان الممولون ورجال الأعمال الألمان قد شرعوا في بناء الكيلو مترات الأولى من خط حديد الأناضول . وفضلا عن ذلك ، فقد تم أثناء هذه الزيارة الاتفاق على مشروع الخط الملاحي بين موانى الليفانت وبحر الشمال . ولم يمض وقت طويل على هذه الزيارة حتى أقال الامبراطور ولهلم الثاني مستشار الرايخ العجوز في ٢٠ مارس عام ١٨٩٠ وعين مكانه الجنرال فون كابريفي Caprivi ، وبذلك ذللت العقبة الرئيسية التي كانت تواجه سياسة الامبراطور التركية .

وأخذ العمل في بناء خط حديد البسفور — أنقرة يسير بسرعة كبيرة تحت إشراف المهندسين الألمان ، ولم يحل شهر يناير عام ١٨٩٣ إلا وكان الخط الذي بلغ طوله ٤٨٥ كيلو متراً قد وصل إلى أنقرة وتم تشغيله بالفعل(٢) . ورغم معارضة الوكلاء البريطانيين في القسطنطينية لإعطاء الممولين الألمان امتياز خط حديد فرعي من اسكي شهر إلى قونية (٣)، فقد

(١) Marriott, Sir J.A.R. : The Eastern Question, pp. 386-7.

(٢) Earle, E.M. : op. cit., p. 32.

(٣) The Cambridge History of the British Empire, vol. 3, p. 277.

حصلت شركة حديد الأناضول فى ١٥ فبراير عام ١٨٩٣ على هذا الامتياز ، وشرعت فى بناء الخط الحديدى الذى تم بناؤه عام ١٨٩٦ ، وكان يبلغ طوله ٤٤٤ كيلو متراً . وفيما بين سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٨ لم تتخذ أية خطوات لمد خط حديد الأناضول فيما وراء أنقرة .

ومما يستلفت النظر أن النشاط الألمانى فى بناء شبكة الخطوط الحديدية فى الأناضول قد واكبه امتداد مصالح ألمانيا الاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى . ففى عام ١٨٨٩ أنشأت جماعة من أصحاب رؤوس الأموال فى هامبورج « خط الليفانت الألمانى » Deutsche Levante Linie للملاحة البخارية بين هامبورج وبرمن وانتورب والقسطنطينية ، بهدف تنشيط التجارة الألمانية فى الدولة العثمانية . وقبل ذلك بعام واحد ، أى فى عام ١٨٨٨ ، وهو العام الذى حصل فيه البنك الألمانى على الامتياز الأصلى لمد خط حديد الأناضول ، كانت الصادرات من ألمانيا إلى تركيا تقدر بمبلغ ٠٠٠ر٧٠٠ر١١ مارك . وفى عام ١٨٩٣ عندما امتد الخط الحديدى إلى أنقرة ، قدرت هذه الصادرات بمبلغ ٠٠٠ر٩٠٠ر٤٠ مارك ، أى بزيادة تبلغ حوالى ٣٥٠٪ . أما واردات ألمانيا من تركيا خلال الفترة نفسها ، فقد ارتفعت من ٠٠٠ ر ٣٠٠ ر ٢ مارك إلى ٠٠٠ ر ٥٠٠ر١٦ مارك ، أى بزيادة تربو على ٧٠٠ ٪ .

والواقع أنه فى خلال الفترة من عام ١٨٨٨ إلى ١٨٩٨ أخذت رؤوس الأموال الألمانية تحل محل رؤوس الأموال الإنجليزية والفرنسية فى تركيا . وكانت شركة « كروب – جرمانيا » Krupp Germania لبناء السفن تمد الأسطول العثمانى بحاجته من الطوربيدات والأسلحة الكبيرة فى حين كانت شركة « لودفيج لوف » Ludwig Loewe تزود الجيش العثمانى بالأسلحة الصغيرة ، وشركة « كروب إسن » Krupp Essen تشارك شركة

أرمسترونج Armstrong الإنجليزية فى تقديم المدافع للدولة العثمانية . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت هناك زيادة ملحوظة فى التجارة الألمانية مع فلسطين وسوريا . ففى عام ١٨٨٩ أسس بعض المموّلين الألمان « البنك الألمانى الفلسطينى » Deutsche Palästina Bank ، وفتحت له فروعاً فى كل من بيروت ودمشق وغزة وحيفا ويافا والقدس ونابلس والناصرة وطرابلس(١) .

وفيما بين سنتى ١٨٩٨ و ١٨٩٩ تلقت وزارة الأشغال العمومية العثمانية عدة طلبات من هيئات مختلفة للترخيص لها ببناء خط حديدى إلى بغداد . فعلى سبيل المثال ، تقدم الكونت فلادمير كابنيست عام ١٨٩٨ بمشروعه الذى سبقت الإشارة إليه ، والذى يستهدف مد خط حديدى من ميناء طرابلس السورى إلى الخليج العربى . ومع أن السلطان عبد الحميد الثانى طلب من وزير الأشغال العمومية دراسة هذا المشروع وتقديم تقرير عنه ، إلا أن السلطان كان فى قرارة نفسه غير مرتاح للمشروع ، لأنه يؤدى إلى امتداد نفوذ روسيا داخل تركيا ، وهو أمر كان يعارضه السلطان بشدة . ولذا لم يحل ربيع عام ١٨٩٩ إلا وكان مشروع كابنيست – كما يقول البروفسور إيرل – « قد وضع على الرف » .

وفى أثناء ذلك كان المموّلون الفرنسيون يتطلعون لبناء خط حديدى من البحر المتوسط إلى الخليج العربى ، ويريدون أن يتخذوا من الخطوط الحديدية القائمة فى سوريا نواة لشبكة حديدية أكثر اتساعاً . ولقى هذا المشروع تأييداً مالياً وسياسياً قوياً فى القسطنطينية لدرجة أن البنك الألمانى وجد أن من صالحه أن يفاوض المموّلين الفرنسيين من أجل الإسهام فى رأس المال اللازم لتنفيذ المشروع . وفى أوائل عام ١٨٩٩ أجريت فى

(١) Earle, E.M. : op. cit., pp. 35-37.

برلين بين الممولين الألمان والفرنسيين مفاوضات اشترك فيها البنك الامبراطورى العثمانى ، وانتهت بإبرام اتفاق فى ٦ مايو عام ١٨٩٩ ، ينص على أن تؤسس شركة خط حديد بغداد، وأن تسهم البنوك الألمانية والفرنسية فى رأس مالها والإشراف عليها بنصيب متساو . وبهذا أزاح هذا الاتفاق مؤقتاً المعارضة الفرنسية لمد خط حديد بغداد .

على أنه لم يلبث أن ظهر فى الميدان منافس ثالث . ونعنى بذلك البنوك الإنجليزية التى تقدمت فى صيف عام ١٨٩٩ بمشروع لمد خط حديدى من الاسكندرونة إلى بغداد والخليج العربى . ولما كانت العروض التى تقدم بها الماليون البريطانيون أفضل من عروض الألمان ، فقد بدا فى غضون شهر أغسطس عام ١٨٩٩ أن الباب العالى سوف يقبلها ويرخص للانجليز ببناء خط حديد بغداد ، إلا أن اندلاع حرب البوير فى أكتوبر من العام نفسه أدى إلى تحويل انتباه بريطانيا ومهندسيها من الشرق الأدنى إلى جنوب إفريقية . وفى هذه الظروف لم يجد السلطان عبد الحميد الثانى مناصاً من أن يعلن فى ٢٧ نوفمبر عام ١٨٩٩ قراره بمنح البنك الألمانى امتياز مد خط حديدى من قونية إلى بغداد والخليج العربى(١) .

وكان الامبراطور ولهلم الثانى قد قام منذ عام مضى بزيارته الثانية للدولة العثمانية فى جو مسرحى مشحون بالكثير من الصخب والضوضاء . ولم تقتصر هذه الزيارة على العاصمة العثمانية فحسب ، بل امتدت إلى بلاد الشام ، فمن الآستانة ذهب الامبراطور بصحبة زوجته الامبراطورة للحج وزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين ثم عادا إلى دمشق . وهناك ألقى الامبراطور فى ٨ نوفمبر عام ١٨٩٨ خطاباً أعلن فيه صداقته للسلطان عبد الحميد الثانى ولملايين المسلمين(٢) . ومع أن زيارة الامبراطور الألمانى

(١) Earle, E.M. : op. cit., pp. 58-61.

(٢) Marriott, Sir J.A.R. : op. cit., pp. 401-2.

كان لها نتائج قليلة الأهمية بالنسبة إلى موضوع سكة حديد بغداد ، إلا أن هذه الزيارة جاءت فى الوقت الذى حصلت فيه شركة حديد الأناضول على امتياز بناء ميناء فى حيدر باشا(١) ، وهو الامتياز الذى عارضه الفرنسيون بحجة وقوعه ضمن امتيازاتهم السابقة فى غرب الأناضول . كذلك بدأ الروس حملة قوية ضد ازدياد النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية ، خصوصاً بعد أن فشلت الحكومة الروسية فى إقناع ألمانيا بوجوب التفاهم مع فرنسا حول مشاريع السكك الحديدية واتهمتها بأنها تسعى لاستعمار العراق وسوريا ولم يهتم الألمان بالمعارضة الروسية ، لأن العلاقات الدولية كانت متأزمة بين بريطانيا من جهة وبين روسيا وفرنسا من جهة أخرى(٢) .

زد على ذلك أن الامبراطور ولهلم الثانى لم يلبث أن قام فى نوفمبر عام ١٨٩٩ بزيارة بريطانيا ، لكى يطلب من حكومتها — على حد قول رشنتزر Rechnitzer ممثل البيوت المالية البريطانية فى الآستانة(٣) — أن تطلق يده فى تركيا . وفى غضون هذه الزيارة التقى جوزيف تشمبرلين Joseph Chamberlain وزير المستعمرات مع الامبراطور ، وعلم منه بتفصيل المخططات الألمانية فى الإمبرطورية العثمانية . ولما كان تشمبرلين أكثر اهتماماً بمشروع سيسل رودس Cecil Rhodes فى جنوب إفريقية عن مشروع الممولين البريطانيين فى تركيا، ويخشى فى الوقت نفسه من أطماع روسيا وفرنسا فى منطقة الشرق الأدنى ، فقد كان من نتيجة هذا اللقاء أن أرسلت تعليمات إلى سفير بريطانيا فى الآستانة لكى يبلغ الباب العالى بأن

(١) Marriott, Sir J.A.R. : op. cit., p. 404.

(٢) محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٣) فى خطاب شخصى أرسله رشنتزر فيما بعد إلى البروفسور ليرل بتاريخ ٣٠ سبتمبر عام ١٩٢٢ .

الحكومة البريطانية قد سحبت تأييدها لعروض رشنتزر بشأن مد خط حديدى من الإسكندرونة إلى بغداد والخليج العربى(١).

وأكثر من ذلك يقول F.H. Hinsley فى دراسته عن « سياسة بريطانيا الخارجية ومشاكل المستعمرات بين سنتى ١٨٩٥ و ١٩٠٤ » إنه لما كان لورد سولسبرى رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها لايزال معارضاً لإبرام تحالف بين بريطانيا وألمانيا ، فقد رأى تشمبرلين أن من الأفضل محاولة التوصل إلى تسوية أو وفاق بين الدولتين بصدد المشاكل الدولية ، ولذا اكتفى وزير المستعمرات البريطانى بإبلاغ ولهلم الثانى بأن ألمانيا تستطيع أن تعتمد على مساعدات بريطانيا المالية فى بناء خط حديد بغداد، وفى تقسيم مراكش إلى منطقتى نفوذ بريطانية وألمانية(٢). وعلى هذا النحو لم تبد بريطانيا بادىء ذى بدء أى اعتراض على إنشاء خط حديد بغداد طالما أن المصالح البريطانية ممثلة فى هيئة مديرى شركة حديدى الأناضول ، وطالما أنه لم يتضح بعد أن الألمان يعملون لمد هذا الخط الحديدى إلى الخليج العربى . وفى غضون شهرى أبريل ومايو من عام ١٨٩٩ ظهرت بعض المقالات فى الصحف والمجلات البريطانية لكبار الكتاب السياسيين ، الذين أعربوا فيها عن تفضيلهم لتواجد الألمان فى الأناضول والعراق على أن يحصل الروس على موطىء قدم هناك ، على أساس أن الروس سوف يغلقون الباب فى وجه التجارة البريطانية فى هذه المناطق . وحتى سفير بريطانيا فى الآستانة سير نيقولاس أوكونور لم يجد أية غضاضة فى أن يقوم الألمان ببناء خط حديد بغداد طالما أن هناك فرصة لاشتراك البريطانيين معهم فى بنائه .

(١) Earle, E.M. : op. cit., p. 86.

(٢) The Cambridge History of he British Empire, vol. 3, p. 518.

وتمشياً مع هذا الاتجاه ، قام سيسل رودس أثناء زيارته لبرلين فى مارس عام ١٨٩٩ بتشجيع الألمان على المضى قدماً فى بناء خط حديد بغداد ، وقارن بين رسالة ألمانيا التى تهدف إلى فتح آسيا الصغرى للاستثمارات الأجنبية وإدخال مشروعات الرى فى العراق وبين رسالة بريطانيا التى تهدف إلى تطوير القارة الإفريقية وإدخال الحضارة الأوروبية فى ربوعها . وعلى ذلك ، فلم يكن من غير المنتظر أمام عدم اعتراض بريطانيا على مد خط حديد بغداد أن يعلن السلطان عبد الحميد الثانى فى ٢٧ نوفمبر عام ١٨٩٩ عن منحه شركة خط حديد الأناضول الامتياز الذى سبقت الإشارة إليه لبناء خط حديدى فى خلال ثمانى سنوات من قونية إلى بغداد والبصرة(١) .

دعم النفوذ البريطانى فى الكويت :

ومن الضرورى الإشارة إلى أن بريطانيا لم تكن تكترث كثيراً لبناء خط حديدى تحت السيطرة الألمانية من قونية إلى بغداد وحتى إلى البصرة. ولكن عندما اتضح فى عام ١٩٠٠ أن الألمان قد استقر عزمهم على أن يجعلوا من الكويت نهاية لهذا الخط الحديدى ، ثارت ثائرة بريطانيا، لأن امتداد هذا الخط إلى الكويت من شأنه القضاء على ما كان لبريطانيا من السيطرة التامة على مياه الخليج العربى ، وربما أثر هذا على نفوذ بريطانيا فى الهند . ولهذا قررت بريطانيا أن تمنع إنشاء هذا القسم من الخط الحديدى الذى سوف يمتد من البصرة إلى الكويت مهما كلفها ذلك من جهد(٢) .

وفى سبيل ذلك لجأت بريطانيا إلى دعم نفوذها فى الكويت مستغلة الظروف التى ألجأت شيخها مباركاً آل الصباح إلى إبرام اتفاقية يناير عام ١٨٩٩ معها ، وهى الاتفاقية التى وضعت الكويت من الناحية العملية تحت

(١) Langer, W : op. cit., pp. 643-4.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٩٦ .

الحماية البريطانية . وكانت بعثة ألمانية برئاسة ستمريخ Stemrich القنصل الألمانى العام فى استانبول قد غادرت العاصمة العثمانية فى مطلع عام ١٨٩٩ للقيام بمسح شامل للجهات التى سوف يمتد عبرها خط حديد بغداد واستكشاف إمكانياتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وتحديد مسار الخط الحديدى فى ضوء هذه الإمكانيات(١) . ووصلت البعثة الألمانية فى أوائل عام ١٩٠٠ إلى الكويت للبحث عن نهاية مناسبة لخط حديد بغداد(٢) . وحاول ستمريخ مفاوضة الشيخ مبارك لتحديد موقع نهاية الخط الحديدى عند رأس كاظمة ، ولكن مبارك — بإيعاز من السلطات البريطانية فى الخليج على ما يبدو — قابله بجفاء ظاهر ورفض الهدايا التى قدمها إليه ، كما رفض أن يتنازل له عن أية أراض حول رأس كاظمة تنفيذاً لاتفاقية يناير عام ١٨٩٩ مع بريطانيا . وفى مايو عام ١٩٠٠ وقع الشيخ مبارك اتفاقاً بحظر استيراد الأسلحة إلى الكويت وتصديرها منها ، وسمح للسفن البريطانية بتفتيش السفن التى يشتبه فى حملها سلاحاً ومصادرة ما تحمله من أسلحة .

وحاول السلطان عبد الحميد الثانى تحت ضغط ألمانيا أن يرغم الشيخ مباركا على الاعتراف بتبعيته للدولة العثمانية . ففى ديسمبر عام ١٩٠١ وصلت السفينة الحربية التركية « زحاف » إلى ميناء الكويت ، ووجهت إنذاراً إلى الشيخ مبارك بأن يسمح ببقاء فصيلة عسكرية تركية فى الكويت أو يعتزل منصبه ويغادر البلاد إلى القسطنطينية . ويقول ديكسون إن مباركا رد على الإنذار رداً سياسياً ولكنه سلبي ، واضطرت « زحاف » إلى الانسحاب . وعلى أواخر هذا الشهر كان هناك من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن المؤامرات التى كان ينسج خيوطها الشيخ يوسف بن عبد الله آل إبراهيم على وشك أن تؤتى ثمارها . إذ كان من الواضح أن

(١) Earle, E.M. : op. cit., p. 34.

(٢) Wilson, Sir A : op. cit., p. 252.

الكويت سوف تتعرض لهجوم برى مشترك من جانب القوات التركية وقبائل شمر ، فتزحف القوات التركية على الإمارة من البصرة ، فى حين تزحف عليها من ناحية حائل قبائل شمر بقيادة عبد العزيز بن متعب آل الرشيد . وعلى الفور اتخذت القوات البحرية البريطانية فى الخليج العربى ترتيبات عاجلة للدفاع عن الكويت ، مما اضطر ابن الرشيد للانسحاب عائداً إلى حائل ، كما انسحب الأتراك بدورهم إلى البصرة (١) .

ومع ذلك ، فقد استمرت الدولة العثمانية تتطلع لغزو الكويت عن طريق أتباعها وصنائعها . ففى خريف عام ١٩٠٢ قام الشيخ يوسف بن عبد الله آل إبراهيم ، الذى كانت الدولة العثمانية قد اعترفت به حاكماً على منطقة الدورة على الجانب الفارسى من الخليج ، بإعداد حملة للاستيلاء على الكويت ، وهى الحملة التى أسندت قيادتها إلى حمود آل الصباح أحد أبناء إخوة مبارك المنافسين له على عرش الإمارة الكويتية ، واشتركت فيها بعض القبائل العربية من منطقة الدورة . وكانت خطة الحملة هى مهاجمة الكويت بغتة حتى لا يترك للانجليز فرصة للتدخل ، إلا أن قائد « لابوينج » Lapwing — إحدى قطع الأسطول البريطانى فى الخليج العربى — تلقى أنباء عن هذه الحملة فى ٣ ديسمبر عام ١٩٠٢ بينما كانت سفينته راسية فى الفاو ، فأسرع بالإبحار صوب الكويت لتلافى هجوم الحملة المفاجىء . وأجرى البحث عن المغيرين دون جدوى فى البداية . وفى ٥ ديسمبر عثر على بعضهم عند رأس العجوزة شرقى ميناء الكويت . وطاردت زوارق « لا بوينج » المسلحة سفينتين للحملة كانتا تحملان ١٥٠ رجلا مسلحاً . وبعد معركة عنيفة تم الاستيلاء على السفينتين بما تحملان من أسلحة وذخيرة ، كما أسر من فيهما . وتمكن بقية أفراد الحملة من

(١) Dickson, H.R.P. : Kuwait and her Neighbours, pp. 139- 140.

الهرب عن طريق خور عبد الله صوب السواحل الفارسية للخليج (١) .

وفى خلال عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٣ كانت الطرادات الروسية والفرنسية تعرج على ميناء الكويت الزيارة . ومع أن هذه الزيارات لم تؤثر على الوضع الداخلى فى الكويت(٢) ، إلا أنها جعلت بريطانيا تنزل بكل ثقلها لتأكيد نفوذها فى الخليج العربى . ففى عام ١٩٠٣ قام اللورد كيرزون بجولة فى إمارات ومشيخات الخليج العربى زار خلالها الكويت فى نوفمبر من هذا العام ، ومنح الشيخ مبارك لقب سير وقلده وشاح نجمة الهند . وفى فبراير عام ١٩٠٤ وافق مبارك على عدم السماح لأية دولة بخلاف بريطانيا بإقامة مكاتب للبريد فى الكويت . وفى يونيه من هذا العام عين أول وكيل سياسى لبريطانيا فى الكويت ، ووصل إليها فى أغسطس أول شاغل لهذا المنصب . وقدمت الدولة العثمانية بهذا الصدد احتجاجات كانت عديمة الجدوى(٣) .

وفى أثناء ذلك كان السلطان عبد الحميد الثانى قد منح فى ١٨ مارس عام ١٩٠٢ شركة حديد الأناضول الامتياز الثانى لبناء خط حديد بغداد ، وأبرق الامبراطور ولهلم الثانى إلى السلطان معبراً عن شكره الشخصى لصدور هذا الامتياز(٤) . وبعد حوالى عام عقدت الحكومة العثمانية مع أصحاب الامتياز اتفاقية فى ٥ مارس عام ١٩٠٣(٥) ، أسست بموجبها شركة خط حديد بغداد برأس مال قدره ١٥ مليون فرنك ، لكى تتولى مد الخط الحديدى فيما وراء قونية إلى بغداد والبصرة ، تحت الإشراف المشترك للبنك الإمبراطورى العثمانى .

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 140.

(٢) Wilson, Sir A.T. : op. cit., p. 252.

(٣) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 140 ; Wilson, Sir A. : op. cit., p. 252.

(٤) Earle, E.M. : op. cit., p. 68.

(٥) Hurewitz, J.C. : op. cit., Doc. No. 103, pp. 252-263.

ومما يجدر ذكره أن البصرة لم تعين بصورة قاطعة كنقطة نهاية للخط الحديدى ، لأن عقد الامتياز الذى سبقت الإشارة إليه اشترط بناء خط فرعى من الزبير إلى نقطة على الخليج العربى يتفق عليها فيما بعد بين الحكومة العثمانية وبين أصحاب الامتياز . وكان من الواضح أن المقصود بهذه النقطة الواقعة على الخليج هى الكويت .

وعلى العموم فقد منح أصحاب الامتياز حق إنشاء ما يلزم من منشآت فى بغداد والبصرة وعند نهاية الخط الحديدى على الخليج العربى لتسهيل رسو السفن وشحن وتفريغ وتخزين البضائع . وفضلا عن ذلك ، فقد منحت شركة خط حديد بغداد حق الملاحة فى نهرى دجلة والفرات وكذلك فى شط العرب طوال مدة بناء الخط الحديدى ، وذلك لنقل المواد اللازمة لبناء وتشغيل الخط الرئيسى وفروعه . وقد أثارت تلك الحقوق مخاوف وغضب شركة « إخوان لينش » Lynch Brothers البريطانية للملاحة النهرية فى دجلة والفرات ، مما دفعها إلى معارضة بناء خط حديد بغداد(١) .

وكان الألمان قد شرعوا منذ عام ١٩٠٣ فى بناء خط حديد بغداد على الرغم من معارضة بريطانيا وروسيا . أما فرنسا فقد توقفت عن معارضة المشروع بعد أن اشترك الرأسماليون الفرنسيون فى تمويله ، وبعد أن منح السلطان عبد الحميد الثانى الشركات الفرنسية امتيازات مماثلة فى سوريا وفلسطين . ومع أن الخط لم يمتد لأكثر من ٢٠٠ كيلو متر فيما وراء قونية عام ١٩٠٤ ، ثم تأخر عبور الخط لجبال طوروس إلى سنة ١٩١٠ بسبب المصاعب السياسية والمالية(٢) ، إلا أن الإنجليز كانوا يعملون أثناء ذلك لعرقلة وصول الخط إلى الكويت(٣) . ففى عام ١٩٠٧ عقدوا مع الشيخ

(١) Earle, E.M. : op. cit., pp. 74-81.

(٢) محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية ص ٢٠١ .

(٣) Newton, A.P. : A Hundred Years of the British Empire, pp. 353-4.

مبارك اتفاقاً وافق بموجبه على أن يؤجر بصفة دائمة إلى الحكومة البريطانية مقابل ستين ألف روبية سنوياً قطعة من الأرض بين بندر الشويخ ومدينة الكويت . ومن المرجح أن هذه الخطوة من جانب بريطانيا كانت رداً على مشروع خط حديد بغداد ، حيث كان من المفروض أن يمتد الخط من البصرة إلى الكويت. ولا يخفى أن تحصين قطعة الأرض هذه المؤجرة من جانب بريطانيا وتحويل بندر الشويخ إلى قاعدة بحرية أو محطة فحم بريطانية ، كان من شأنه أن يمكن بريطانيا من التحكم فى ثغر الكويت ، وأن يجعل بالتالى الموقع المقترح لنهاية الخط الحديدى على الجانب الشمالى من خليج الكويت تحت رحمة نيران المدفعية البريطانية وقد تعهدت بريطانيا مقابل استئجارها لهذه الأرض بالاعتراف بامارة الكويت بحدودها الراهنة للشيخ مبارك وخلفائه من بعده ، كما تعهدت بألا تحصل أية رسوم جمركية فى المنطقة المؤجرة أو فى أية أراض أخرى تستأجرها فيما بعد من الشيخ مبارك أو من خلفائه من بعده . واحتفظت الحكومة البريطانية لنفسها بحق إنهاء إيجار منطقة بندر الشويخ فى أى وقت تشاء (١) .

ومع أن المعارضة الروسية البريطانية لمشروع خط حديد بغداد قد ازدادت عقب الاتفاق البريطانى الروسى بشأن تقسيم فارس عام ١٩٠٧ ، وهو اتفاق – كما يقول سومرفيل – كان يسمح بأن يتجول الدب الروسى حراً فى الأجزاء الشمالية من فارس والأسد البريطانى فى أجزائها الجنوبية(٢) ، إلا أن الحكومة البريطانية برئاسة سير هنرى كامبل بانرمان H. Campbell-Bannerman (١٩٠٦ – ١٩٠٨) كانت على استعداد لسحب معارضتها لهذا المشروع إذا ماترك للبيوت المالية البريطانية بناء وتشغيل أجزاء الخط الحديدى من بغداد إلى الخليج العربى . وقد أحيط

(١) Dickson, H.R.P. : op. cit., p. 141.

(٢) Somervell, D.C. : Modern Europe, 1871-1939, p. 58.

الإمبرطور ولهلم الثانى علما بذلك أثناء زيارته لبريطانيا عام ١٩٠٧ من جانب لورد هالدين Haldane وزير الدفاع وسير إدوارد جراى Grey وزير الخارجية وغيرهما من الساسة البريطانيين المسئولين .

أما المعارضة الروسية للمشروع فلم تستمر طويلا . ففى مؤتمر بوتسدام بين امبراطور ألمانيا وقيصر روسيا ، بحثت قضية سكة حديد بغداد . وبمقتضى اتفاقية بوتسدام فى ١٩ أغسطس عام ١٩١١ ، تعهد قيصر روسيا بالكف عن معارضته لمشروع سكة حديد بغداد ، مقابل تعهد إمبراطور ألمانيا بالكف عن التدخل فى الشئون الداخلية الفارسية والاعتراف بالنفوذ الروسى فى القسم الشمالى من فارس(١) .

وكان رجال الاتحاد والترقى الذين استأثروا بالسلطة فى القسطنطينية منذ عزل السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٩ ، لا يكفون أثناء ذلك عن محاولة إخضاع الكويت بإرسال الحملات إليها عن طريق شيخ قبائل المنتفك سعدون باشا(٢) ، الأمر الذى قوبل من جانب بريطانيا بالإصرار على الاستئثار بالنفوذ السياسى والاقتصادى فى الكويت. فى أغسطس عام ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك للكابتن شكسبير Shakespare الوكيل السياسى فى الكويت ، بألا يستجيب إلى الطلبات التى تقدم إليه للبحث عن اللؤلؤ أو لصيد الاسفنج فى مياهه الإقليمية إلا بمشورة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج وبموافقة حكومة الهند البريطانية(٣) . وفى ٢٧ أكتوبر عام ١٩١٣ تعهد الشيخ مبارك كتابياً بألا يمنح حق التنقيب عن البترول واستغلاله فى الكويت لأى شخص دون الرجوع إلى الحكومة

(١) The Cambridge History of the British Empire, vol. 3, p. 552.

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٣) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى. الوثيقة رقم ٤ ص ٢٦٠ .

البريطانية(١).

ومع ذلك ، فقد كان بسبب رغبة الحكومة العثمانية فى تسوية خلافاتها مع بريطانيا ، أن دخلت فى مفاوضات مع حكومة هربرت هنرى أسكويث Herbert Henry Asquith حول عدة مسائل تتعلق بالممتلكات التركية فى آسيا وسكة حديد بغداد والامتيازات الأجنبية والرسوم الجمركية . وقد جرت هذه المفاوضات فى لندن ، وتولاها من قبل الحكومة العثمانية حقى باشا الذى كان قد تولى من قبل منصب الصدارة العظمى ، وأسفرت عن عدة اتفاقيات ، يهمنا منها اتفاقيتا ٢٩ يوليه و ١٢ أغسطس عام ١٩١٣ . وكان أهم ما جاء بهاتين الاتفاقيتين بخصوص امارات الخليج العربى وسكة حديد بغداد ما يلى(٢) :

أولاً — تتنازل الدولة العثمانية عن كل ما لها من حقوق ومطالب فى شبه جزيرة قطر ، وتتعهد بسحب كل ما كان لها من موظفين وجنود هناك كما تتنازل عن كل ما كان لها من حقوق ومطالب فى جزر البحرين .

ثانياً — تعترف الدولة العثمانية بالاتفاقيات التى عقدت بين بريطانيا وشيخ الكويت ، وتتعهد بألا تتدخل فى شئون الكويت الداخلية أو الخارجية ، على أن يرفع شيخ الكويت العلم العثمانى ، وإذا أراد فإنه يستطيع أن يضيف إلى زاويته كلمة « الكويت » . وفضلا عن ذلك ، فإن الدولة العثمانية تتعهد بالمحافظة على حقوق الشيخ مبارك فى أملاكه بالعراق الجنوبى .

---

(١) سيد نوفل : المصدر السابق . الوثيقة رقم ٥ ص ٢٦١ وكذلك:
Hurewitz, J.C. : op. cit., vol. 1, p. 272.

(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٠٤ — ٢١٢ وكذلك:
Earle, E.M. : op. cit., pp. 255-6 ; Dickson, H.R.P. : op. cit., pp. 147-8.

ثالثاً — تعترف بريطانيا بالسيادة العثمانية على الكويت ، كما تتعهد بألا تقوم بإعلان الحماية على تلك الإمارة .

رابعاً — يكون للدولة العثمانية ممثل لدى شيخ الكويت لكى يتولى حماية الرعايا العثمانيين والمصالح العثمانية فى الإمارة .

خامساً — تتعهد الحكومة العثمانية بأن يكون فى مجلس إدارة شركة حديد بغداد عضوان بريطانيان يتم انتخابهما بالاتفاق مع الحكومة البريطانية .

سادساً — تكون البصرة هى نهاية خط حديد بغداد ، ولا يمد الخط إلى ما بعد البصرة إلا بعد اتفاق الحكومة البريطانية ، والشروط التى ترضى بها الحكومة الأخيرة .

سابعاً — تعلن الحكومة العثمانية بأن شركة حديد بغداد قد تخلت عن جميع الحقوق التى كانت قد منحت لها لمد الخط الحديدى إلى ما بعد البصرة ولإنشاء مرفأ فى الخليج .

ومن الجدير بالذكر أن هاتين الاتفاقيتين ظلتا دون تصديق بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ، ودخول الدولة العثمانية هذه الحرب إلى جانب دول الوسط ضد بريطانيا وحلفائها .

مصادر مختارة

أولا : المصادر العربية :

١ — أحمد بن زيني دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية .

٢ — : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام .
القاهرة ١٣٠٥ هـ

٣ — أحمد عزت عبدالكريم (الدكتور) : « العلاقات بين الشرق العربي وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر » . من دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة .

٤ — أحمد علي : آل سعود . مكة ١٩٥٧ .

٥ — أحمد فخري (الدكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها . القاهرة ١٩٥٧ .

٦ — أحمد مصطفى أبو حاكمة (الدكتور) : تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .

٧ — أمين الريحاني : ملوك العرب أو رحلة في بلاد العرب (في مجلدين) بيروت ١٩٢٩ .

٨ — : تاريخ نجد الحديث وملحقاته . بيروت ١٩٥٤ .

٩ — أمين محمد سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم (في مجلدين) القاهرة ١٩٣٣ .

١٠ — : اليمن . تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري . القاهرة ١٩٥٩ .

١١ — أنيس صايغ (الدكتور) : الهاشميون والثورة العربية الكبرى . بيروت ١٩٦٦ .

١٢ — السيد مصطفى سالم (الدكتور) : تكوين اليمن الحديث . اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤ — ١٩٤٨ القاهرة ١٩٦٣

١٣ — : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ . القاهرة ١٩٦٩ .

١٤ — جمال زكريا قاسم (الدكتور) : الخليج العربي . دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ . القاهرة ١٩٦٦ .

١٥ — حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين . القاهرة ١٩٥٦ .

١٦ — حسين مؤنس (الدكتور) : الشرق الإسلامي في العصر الحديث . القاهرة ١٩٣٨ .

١٧ — ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . بيروت ١٩٦٥ .

١٨ — سيد نوفل (الدكتور) : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي . القاهرة ١٩٦٠ .

١٩ — صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها (في مجلدين) بيروت ١٩٥٧ .

٢٠ — صلاح العقاد (الدكتور) : الاستعمار في الخليج الفارسي . القاهرة ١٩٥٦ .

٢١ — عبد الحميد البطريق (الدكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧—١٨٤٠ . القاهرة ١٩٦٩ .

٢٢ — عبد القادر المغربي : جمال الدين الأفغاني .

٢٣ — عبد الله عبد الكريم الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن . القاهرة ١٩٥١ .

٢٤ — عبد الله ، الملك : مذكرات الملك عبد الله . نشر أمين أبو الشعر ، عمان ١٩٦٥ .

٢٥ — عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن . القاهرة ١٩٢٧ .

٢٦ — فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب . مكة ١٩٣٣ .

٢٧ — لوثروب ستودار : حاضر العالم الإسلامى . ترجمة عجاج نويهض وتعليق الأمير شكيب أرسلان . جزآن . القاهرة ١٣٤٣ هـ .

٢٨ — محمد أنيس (الدكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ — ١٩١٤ .

٢٩ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية (١٨٩٦) .

٣٠ — محمود على الداود (الدكتور) : الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٨٩٠ — ١٩١٤ .

٣١ — نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العرب السعيدة ،

٣٢ — هاملتون جب وآخرون : وجهة الإسلام . نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٣٤ .

ثانياً : المصادر الأوروبية :

1 — Abdullah, King : Memoirs of King Abdullah of Transjordan, ed. by Philip P. Graves, London, 1950.

2 — Aitchison, C.U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sandas relating to India and Neighbouring Countries, 12 vols., Calcutta, 1876-1892.

3 — Anis, M. : England and the Suez-Route in the Eighteenth Century, Cairo, 1957.

4 — Benoist-Méchin, J. : Arabian Destiny. Translated from the French by Denis Weaver, London, 1957.

5 — Blaisdell, D.C. : European Financial Control in the Ottoman Empire. A Study of the Establishment, Activities, and Significance of the Administration of the Ottoman Public Debt, New York, 1929.

6 — Burckhardt, J.L. : Notes on the Bedouins and Wahabys, London, 1830.

7 — Bury, G.W. : Arabia Infelix, or the Turks in Yemen, London, 1915.

8 — Cecil, Lady G. : The Life of Robert, Marquis of Salisbury, 4 vols., London, 1921, 1931, 1932.

9 — Curzon, G.N. : Persia and the Persian Question, 2 vols., London, 1892.

10 — de Gaury, G. : Rulers of Mecca, London, 1951.

11 — de Tott, Baron : Mémoires de Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares (1785).

12 — Driault, E. : La formation de l'Empire de Mohamed Aly. De l'Arabie au Soudan (1814-1823), Le Caire, 1928.

13 — ———— : La Question d'Orient depuis ses origines jusqu'à la paix de Sèvres, Paris, 1921.

14 — Earle, E.M. : Turkey, The Great Powers, and the Bagdad Railway. A Study in Imperialism, New York, 1924.

15 — Encyclopaedia of Islam. 1st eld., 4 vols. and suppl., Leiden, 1913-38, 2nd ed., 1954.

16 — Engelhardt, E. : La Turquie et le Tanzimat, 2 vols., Paris, 1882-4.

17 — Gibb, H.A.R. : Modern Trends in Islam, Chicago, 1947.

18 — Gibb, H.A.R. and Bowen, H. : Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East, vol. 1, Oxford, 1960.

19 — Hasluck, F.W. : Christianity and Islam under the Sultans, ed. by Margaret M. Hasluck, 2 vols., Oxford, 1929.

20 — Haydar, A.M. : The Life of Midhat Pasha. A Record of his Services, Political Reforms, Banishment and Judicial Murder, London, 1903.

21 — Heyd, U. : Foundations of Turkish Nationalism. The Life and Teachings of Ziya Gökalp, London, 1950.

22 — Hogarth, D.G. : Arabia, Oxford, 1922.

23 — Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record, 2 vols., Princeton, 1956.

24 — Jacob, H. : Kings of Arabia, London, 1923.

25 — Kedourie, E. : England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire 1914-1921, London, 1956.

26 — Langer, W.L. : The Diplomacy of Imperialism. A Penetrating and Revelatory Study of European Diplomacy in the Crucial Period from 1890 to 1902, New York, 1956.

27 — Lenczowski, G. : The Middle East in World Affairs, New York 1952.

28 — Lewis, B. : The Arabs in History, London, 1950.

29 — ——— : The Emergence of Modern Turkey, Oxford, 1961.

30 — Longrigg, S.H. : Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.

31 — Marriott, Sir J.A.R. : The Eastern Question. An Historical Study in European Diplomacy. Fourth Edition, Oxford, 1958.

32 — Mears, E.G. and others : Modern Turkey. A Politico-Economic Interpretation 1908-1923, New York, 1924.

33 — Miller, W.M. : The Ottoman Empire and its successors 1801-1927, Cambridge, 1927.

34 — Neibuhr, C. : Description de l'Arabie, faite sur des observations propres et des avis recueillis dans les lieux mêmes, Amsterdam 1774.

35 — Palgrave, W.G. : A Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia, 2 vols., London, 1865.

36 — Philby, H. St. J. : Saudi Arabia, London, 1955.

37 — Ramsaur, E.D. : The Young Turks. Prelude to the Revolution of 1908, Princeton, 1957.

38 — Sadlier, G.F. : Diary of a Journey across Arabia from el Katif in the Persian Gulf to Yambo in the Red Sea, during the year 1819, Bombay, 1866.

39 — Stitt, G. : A Prince of Arabia (1948).

40 — Temperley, H.W. : England and the Near East, London, 1936.

41 — The Cambridge History of the British Empire, vol. 3, Cambridge, 1959.

42 — Valyi, F. : Europe in Asia Minor.

43 — Weygand, Général : Histoire militaire de Mohamed Aly et de ses fils, 2 vols., Paris, 1936.

44 — Wilson, Sir A.T. : The Persian Gulf. An Historical Sketch from the earliest times to the beginning of the twentieth century, London, 1959.

فهرس

الموضوع — صفحة

الموضوع — صفحة

الموضوع — صفحة